الفصل الثالث:

فقه الكليات السننية للعمران البشري في الهدي النبوي

تمهيد:

تظل السيرة النبوية متى أحسنا قراءتها -وقبلها القرآن الكريم- مصدراً ضابطاً لفقه الكليات السننية للعمران البشري الذي يعصم من الوقوع في تصورات جزئية خاطئة أو إسقاطات فجة أو استنتاجات مبتسرة تسعى إلى استنساخ جامد "للاستراتيجات" والوسائل، وتبن غير رشيد للمراحل والخطط، والنظر إليها على أنها مجموعة من الغزوات والسرايا، يبدو الرسول ﷺ فيها رجل حرب وقائد جيش يخوض في كل يوم معركة مع الأعداء، فيضيع مع هذا النظر الكليل عمق التأسي الكلي المقاصدي السنني بالنبي ﷺ في أبعاده الحضارية الرسالية الكبرى المتعلقة بإدارة صيرورة التدافع، والتجديد الحضاري، وإقامة العمران العالمي الإسلامي.

ولعل تناول فقه الكليات السننية ينسجم مع منطق السنن ذاتها وطبيعتها الكلية، كما ينسجم مع فلسفة الدين التشريعية، وكلياته المقاصدية التي جاء لحفظها. والحديث عن الكلي حديث في التقعيد والتقصيد والتأصيل، فكل كلي تندرج تحته قواعد، ويحفظ مقاصد ومصالح، ويبني أصولاً عليها المعتمد في الفهم والاستنباط. ولا تخفى أهمية وضرورة هذا المسلك المنهجي في الفقه وأصوله كما أشار إلى ذلك بعض المحققين من أهل العلم مثل قول القرافي (توفي: ٦٨٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف، وتتضح مناهج الفتاوى وتكشف...، ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات، لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب."[1] ونسجاً على قول القرافي، فإن قواعد السنن وكلياتها المستمدة من السيرة

(١) القرافي، **الفروق**، مرجع سابق، ج١، ص٣.

النبوية مهمة وضرورية في إحكام فقه سنن العمران البشري، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر المشتغل بالسيرة والعارف بها، ويظهر رونق السيرة ويعرف، وتتضح مناهج الاستمداد منها والتأسي الموضوعي المقاصدي بها، وتكشف. ومن ضبط السيرة النبوية بقواعدها وكلياتها السننية تيسر له فهم جزئيات وقائعها وأحداثها، لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب، واستغنى بذلك عن الالتفات إلى كثير من مناهج التغيير المعاصرة التي تنكبت الفقه السنني النبوي فتفرقت بها السبل.

إن دراسة سنن العمران البشري من السيرة النبوية إذالم تضبطها كليات جامعة وقواعد ناظمة تواردت الفروع على الذهن، فيضطرب بسبب عدم تحصيله لما يغنيه عنها، وقد يقع في التناقض والالتباس فلا يكاد يتحقق مقصوده من البحث والنظر، ولو استغنى بالكليات عن الجزئيات وبالقواعد عن الفروع لاستقامت له تلك الفروع والجزئيات، وانتظمت له في عقد فريد. ولذلك لا يعذر الباحث في سنن الله في العمران البشري لا سيّما في السيرة النبوية من بذل الوسع واستفراغ الجهد في تعميق البحث، والنظر والصياغة، والتنزيل للكليات الكبرى للسنن، وتجاوز منهج التجزيء والتعضية.

أولاً: الأبعاد الكبرى[1] لفقه الكليات السننية للعمران البشري في المنهج النبوي

إن الوعي بطبيعة أبعاد الفقه السنني للعمران البشري في المنهج والحركة النبوية مدخل أساسي في التجهيز المنهجي والإدراك المعرفي والاستثمار الفعال للمنظومات السننية العمرانية التي عمل وفقها النبي ﷺ ومكنته من فهم واستيعاب حركة الاجتماع والعمران البشري، والارتقاء بالأداء الاستخلافي للإنسان إلى مستوياته الحضارية

(١) لم نفرد كلاماً خاصاً عن البعد العقدي التوحيدي ضمن الأبعاد الكبرى لفقه الكليات السننية للعمران البشري في المنهج النبوي، لا لغفلتنا عنه أو تجاهلنا له، وإنما لأنه الخيط الناظم لجميع الأبعاد الأخرى ويحضر داخلها على الدوام بوصفه مركز الرؤية المعرفية والمنهجية الإسلامية، كما أننا لم نأل جهداً في التركيز على الرؤية التوحيدية للمسألة السننية في الباب الأول من الكتاب وفي سائر موضوعاته فيما بعد.

النموذجية المتاحة؛ من خلال شحذه لفكر ووعي الفرد والجماعة والأمة بأصالة وتجديد وفعالية واطرادية وتكاملية سنن الله في التسخير والاستخلاف، وتوجيه ذلك كله في اتجاه تحقيق العالمية والخيرية والشهادة على العالمين، "فالقيادة النبوية كانت تعي جيداً حدود إمكاناتها التسخيرية، كما كانت تعي حجم الحاجات المتزايدة للدعوة والدولة والمجتمع، وتدرك حجم التحديات التي تحيط بحركة البلاغ والبناء والمواجهة، كما تدرك بشكل أعمق وأشمل، أن حركة التغيير الحضاري تحكمها سنن مطردة نافذة، لا يمكن الذهول عنها، أو التهاون في أمرها، فجاءت حركته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منسجمة انسجاماً متكاملاً مع كل هذه الأبعاد والمعطيات والشروط والسنن... لضمان الفعالية الإنجازية المطلوبة في الزمان والمكان والظرف."[1] من هنا يمكن الحديث عن الأبعاد الكبرى لفقه الكليات السننية للعمران البشري في ضوء الهدي النبوي:

١- البعد المنهجي لفقه الكليات السننية للعمران البشري في إدارة التدافع مع القوى المضادة المناهضة للعمران:

وهو بعد يقوم على منهج مراعاة السنن من خلال:

أ- إحكام وتحكيم فقه النص حيث يجري الوحي مع السنن كما تتوافق السنن مع الوحي، وهو فقه يقوم على منهج الجمع بين القراءتين.[2] "وتكمن في القرآن والسنة إشارة تسويغ إلى هذا المزج بين الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وبسط ظواهر الحياة

---

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص٥٥.

(٢) شاع مصطلح أو منهج الجمع بين القراءتين لدى المعاصرين، وكان أول من أشار إليه المفكر الإسلامي الحاج حمد أبو القاسم في كتابه "العالمية الإسلامية الثانية"، والمفكر الإسلامي طه جابر العلواني. وبعيداً عن التنظيرات الفلسفية لمنهج الجمع بين القراءتين وما ترتب عنها من نقاشات وردود، فإن هذا المنهج في أصله هو منهج قرآني محض لا يمكن أن ينظر له، أو تستنبط قواعده وأصوله إلا من داخل منظومة الوحي نفسه قرآناً وسنة وسيرة.

- حاج حمد، محمد أبو القاسم. **جدلية الغيب والإنسان والطبيعة؛ العالمية الإسلامية الثانية**، بيروت، دار الهادي، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص١١.

والموازين العقلية التي تحوم حولها الفلسفات والعلوم، ذلك أن المنهج القرآني والمنحى السني في إيراد الأحكام وتعليم الحلال والحرام مزجا هذا المزج، وخلطا الأوامر والنواهي بمواعظ واستدلالات عقلية، وبتذكير بالفطرة واطراد السنن الكونية والظواهر الحيوية."[1]

ب- إحكام فقه الواقع وهو من عناصر منهجية الاجتهاد في فقه السنن، بل نرى أنه لا يحق لمن لم يكابد ويجاهد، ويدافع، وينصب، ويصدح، ويأمر وينهى؛ جهراً بالحق ومدافعة للباطل ومنازلة له، وقد يبتلى ويمتحن، أن يتحدث عن فقه السنن، فكلامه خارج المنهج، إنما فقه السنن منحة لمن عصرته الشدائد وخالط الناس لا من قعدت به الهمة، فانزوى مع كتب ظن أنها تكفل له معرفة السنن، وكذلك كان النبي ﷺ يسالم ويحارب، يأمر وينهى، يرسل رسائله إلى الملوك ويدعوهم، كان دائم الفكر في أحوال أصحابه، ينظر في الإمكانات المتوافرة لديه، والتحديات التي تواجهه، وحجم الفرص الممكنة والقدرة التدافعية للآخر المحارب أو المسالم. وعلى هذا الفقه رفض ﷺ العنف والمواجهة المسلحة بمكة،[2]

---

(١) الراشد، **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٠٦.

(٢) فعن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه "أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة! قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم." رواه النسائي بسند صحيح في المجتبى والسنن الكبرى، والحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط البخاري، لكن تعقبه أكرم ضياء العمري في بقوله: "والصحيح أنه على شرط مسلم فقط؛ لأن البخاري أخرج للحسين بن واقد تعليقاً فقط." وعند ابن إسحاق بسند حسن قول العباس بن عبادة بن نضلة في بيعة العقبة الثانية: "والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، قال له رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم." انظر:

- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، كتاب: الجهاد، باب: وجود الجهاد، ج٦، ص٢، حديث رقم: (٣٠٨٦).

- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق: عبد الغفار =

وأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة،[1] وقبل نصرة أهل العقبة الثانية،[2] ولم يقبلها من

= سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، كتاب: التفسير، باب: سورة النساء، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ﴿٧٧﴾﴾، ج٦، ص٢، حديث رقم: (٣٠٨٦).

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٦، وج٢، ص٣٠٧.

- العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٨.

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٤٨.

(١) يقول الصادق عرجون: "وحديث الهجرة إلى الحبشة طويل الذيول، عريض الأكناف، متفاوت الأخبار، مختلف الروايات." وما ذكره عرجون رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرفه من تتبع مرويات الهجرة إلى الحبشة. والذي يتحصل بعد النظر في مجمل الروايات وقوع الهجرة إلى الحبشة على الأقل مرتين: الأولى كانت في الخامسة من المبعث، وكان عددهم اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وفيها أرسلت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد لاستطلاع الأمر، والهجرة الثانية كانت قبيل حصار الشعب. وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً إن كان فيهم عمار وثماني عشرة امرأة. انظر:

- عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٨.

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٠-١١٩، وص١٥٣-١٦٠.

- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٩-٢١٥.

- الألباني. **صحيح السيرة النبوية**، مرجع سابق، ص١٦٤-١٨٧.

- العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، من ص١٦٩إلى١٧٦.

- الجميل، محمد بن فارس. **الهجرة إلى الحبشة: دراسة مقارنة للروايات**، الرياض: دار الفيصل الثقافية، ط٢، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

(٢) ذكر ذلك ابن إسحاق والسهيلي، ورواه وأحمد، والحاكم، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح. وفي إحدى رواياته عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَتَبَّعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِمِجَنَّةَ وَعُكَاظَ وَمَنَازِلِهِمْ بِمِنًى: " مَنْ يَقْرِينِي وَيَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ " وَلا يَجِدُ أَحَداً يَنْصُرُهُ وَلا يُؤْوِيهِ". وفيه "فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله عَلَى مَا نُبَايِعُكَ؟ فَقَالَ ﷺ :" تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي الله لا يَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، =

بني شيبان حيث لم يحيطوا بالأمر كله،[1] وتزوج جويرية بنت الحارث لما علم من خبر قومها بعد غزوة بني المصطلق، فأرسل الناس ما كان بأيديهم من الأسرى والسبايا.[2] وترك قتل عبد الله بن أبي ابن سلول حتى لا ترعد له أنوف، فيتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.[3]

ت- إحكام فقه الموقع.[4] وهو فقه كان يدرك من خلاله الرسول ﷺ الطاقات

= وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِيَ إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ" فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ ﷺ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ إِلا أَنَا". انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٤٢.

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٦٢-٢٦٨.

-الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٢، ص٣٤٦، حديث رقم: (١٤٤٥٤).

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٢٤-٦٢٥.

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤١٣) من هذا الكتاب. والشاهد عندنا هو قول مفروق للنبي ﷺ: نزلْنَا عَلَى عَهْدٍ أَخَذَهُ عَلَيْنَا كِسْرَى لا نُحْدِثُ حَدَثاً وَلا نُئْوِي مُحْدِثاً، وَإِنِّي أَرَى هَذَا الأَمْرَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ مِمَّا تَكْرَهُهُ الْمُلُوكُ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نُئْوِيَكَ وَنَنْصُرَكَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَعَلْنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ أَحَاطَهُ الله مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ... " الحديث. وسيأتي الحديث بتمامه مع تحليله في ضوء المقاربة السننية.

(٢) ذكره ابن إسحق، وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه، وأخرجه من طريقه أبو داود. والشاهد عندنا هو قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم؛ قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها".

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٤.

- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب: العتق، باب: في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة، ج٢، ص٤١٥، حديث رقم: (٣٩٣١).

(٣) تقدم تخريج الروايات المتعلقة بذلك صفحة (٤٣٧-٤٣٩) من هذا الكتاب.

(٤) أو فهم الموقع، وهو اصطلاح للراشد. انظر:

- الراشد، **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية**، مرجع سابق، ج٣، ص٦٨.

البشرية، وميزتها التنافسية، وعائداتها التربوية والدعوية و"الاستراتيجية" في إقامة العمران البشري. فها هو زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا ابنه خارجة عن التشجيع وحسن التقدير الذي لقيه أبوه زيد من رسول الله ﷺ حين قدم المدينة قال زيد: "ذهب بي إلى رسول الله ﷺ فأعجب بي، فقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وقال: "يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتابي"، قال زيد: فتعلمت لهم كتابهم ما مرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب."[1]

---

(١) رواه ابن سعد، وأبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد. وهذه الروايات كلها من طريق عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه، وبهذا السند أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً قول خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود، حتى كتبت للنبي ﷺ كتبه وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه." وعبد الرحمن بن أبي الزناد ضعفه بعضهم كابن معين وأبي حاتم والنسائي، ووثقه آخرون كمالك والعجلي والترمذي، وكان من الحفاظ المكثرين، وما حدث بالمدينة أصح مما حدث ببغداد، روى أرباب السنن الأربعة له، مات ببغداد سنة١٧٤هـ. قال ابن حجر: "فيكون غاية أمره أنه مختلف فيه، فلا يتجه الحكم بصحة ما ينفرد به، بل غايته أن يكون حسنا." وذكر ابن حجر سؤاله لشيخيه العراقي والبلقيني عن هذا الحديث فكتب له كل واحد منهما بأنهما "لا يعرفان له متابعاً" ثم قال: ثم ظفرت بعد ذلك بالمتابع الذي ذكرته فانتفى الاعتراض من أصله." انظر:

- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠.
- السجستاني، **سنن أبي داود**، كتاب: العلم، باب: رواية حديث أهل الكتاب، ج٢، ص٣٤٢، حديث رقم: (٣٦٤٥).
- الترمذي، **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، كتاب: الأدب، باب: في تعليم السريانية، ج٤، ص٣٦٥، حديث رقم: (٢٧١٥).
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٥، ص٤٩٠، حديث رقم: (٢١٦١٨).
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأحكام، باب: ترجمة الحكام، وهل يجوز ترجمان واحد؟ حديث ج٦، ص ٢٦٣١.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ج٤، ص٣٠٠-٣٠١. =

وإذا كان زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد حفظ بضع عشرة سورة، فإن تعلمه لغة اليهود، ولغات أخرىٰ كما ذكر ابن حجر والسخاوي وعبد الحي الكتاني[1] في خمس عشرة ليلة أو سبع عشرة ليلة كما في رواية أخرىٰ وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة دليل علىٰ ما يفعله التشجيع والمدح والإعجاب بإنجازات الطفل؛ من التدعيم النفسي للطفل وإطلاق قدراته الإبداعية وطاقاته الخفية، وكان هذا هو حال زيد بن ثابت الحافظ اللبيب العالم العاقل حتىٰ كتب الوحي لرسول الله ﷺ بالمدينة، وجمع القرآن بأمر من أبي بكر، وغيرها من المناقب التي حفلت بها كتب التراجم والسير ومصنفات السنن.

وبهذا الفقه النبوي لم يكن ﷺ ينتظر حتىٰ ينخرط عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بعد إسلامهما في حلقات تربوية وبرنامج إيماني، ليوكل إليهما مهام جديدة، وإنما علم موقع كل منهما وما يملكانه من مهارات التميز في مجال التدبير العسكري والحربي، والتخطيط "الاستراتيجي" في مواجهة العدو، وقد أدرك أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا المعنىٰ؛ فقد "بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلىٰ بني جذيمة فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلىٰ كل رجل منا أسيره. فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد"[2] .....

= - ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٤-٥٠٥

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ١٨٧.

(١) انظر:

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. **التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ، ج١، ص٣٦٥.

- الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمىٰ بالتراتيب الإدارية، مرجع سابق، ص١٩٤.

(٢) قال ابن حجر: "فإن فيه إشارة إلىٰ تصويب فعل ابن عمر ومن تبعه في تركهم متابعة خالد علىٰ قتل من أمرهم بقتلهم من المذكورين به. وقال الخطابي: الحكمة في تبرئه ﷺ من فعل خالد مع كونه لم يعاقبه علىٰ =

مرتين"[1] وفي مؤتة،[2] لما حصل ما حصل من مقتل الأمراء الثلاثة:[3] زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب،[4] وعبد الله بن رواحة، وأخذ "الراية ثابت بن أقرم[5]

= ذلك لكونه مجتهداً، أن يعرف أنه لم يأذن له في ذلك خشية أن يعتقد أحد أنه كان بإذنه، ولينزجر غير خالد بعد ذلك عن مثل فعله." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص١٨٢.

(١) قال ابن حجر: "وهذا البعث كان عقب فتح مكة في شوال قبل الخروج إلى حنين عند جميع أهل المغازي.". وكان هذا البعث بعث دعوة وتعليم وليس بعث حرب وقتال. قال ابن إسحاق: حدثني حكيم بن عباد عن أبي جعفر -يعني الباقر- قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد حين افتتح مكة إلى بني جذيمة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأحكام، باب: إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد، ج٦، ص٢٦٢٨، حديث رقم: (٦٧٦٦). وفي كتاب: المغازي، باب: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، ج٤، ص١٥٤٤، حديث رقم: (٤٠٨٤).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٩-٤٣٠.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٥٧.

(٢) كانت مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان كما في مغازي أبي الأسود عن عروة، وبذلك قال ابن إسحاق، ومؤتة منطقة بأدنى البلقاء من أرض الشام.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٥١١.

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٧٣.

- ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٨.

(٣) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام، ج٤، ص١٥٥٤، حديث رقم: (٤٠١٤).

(٤) جعل الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب ثاني أمراء غزوة مؤتة ولم يمر على عودته إلى المدينة من الحبشة سوى بضعة أشهر، مع افتقاره إلى رصيد تاريخي امتلكه غيره ويرتبط بالصحبة النبوية لمدة تقارب أو تزيد قليلاً عن ثلاثة عشر سنة. وهو ما يدل على معرفته ﷺ بقدرات أصحابه وتقديمهم لتحمل أعباء الدعوة وتشييد العمران والاجتماع الإسلامي، بعيداً عن تلك التصورات الجامدة التي تقضي بأن يخضع الشخص لسنوات من التربية والتكوين لزاماً دون مراعاة استعداداته وقدراته القيادية. وهو درس للتنظيمات الدعوية والإصلاحية لمن أراد أن يعتبر.

(٥) ثابت بن أقرم حليف الأنصار له صحبة شهد بدراً مع النبي ﷺ، وشهد غزوة مؤتة. انظر ترجمته في:

- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: طه محمد الزيني، المطبوع بذيل كتاب الإصابة لابن حجر، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٣٨٨هـ، ج١، ص١٩١، وانظر أيضاً: =

أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس"[1] وعاد بالجيش منصوراً[2] كما عاد بالظفر عمرو بن العاص قائد سرية ذات السلاسل،[3] "فعن أبي

= - ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٠.

(١) ذكره ابن إسحاق ورجاله ثقات، وصرح بالتحديث، وأخرجه أبوداود وقال: هذا الحديث ليس بالقوي، وحسن ابن حجر إسناده، قال: "وذكره ابن إسحاق بإسناد حسن". ولا تضر جهالة الصحابي في سلامة الإسناد من الضعف. وعند موسى بن عقبة في مغازيه "ثم أخذه -يعني اللواء- عبد الله بن رواحة فقتل، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين". انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٠.

- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد، باب: في الدابة تعرقب في الحرب، ج٢، ص٣٣، حديث رقم: (٢٥٧٣).

- البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٦٣.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٥١٤.

(٢) دليله ما أخرجه البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم". قال ابن كثير جمعاً بين رواية ابن إسحاق (المثبتة في المتن) ورواية البخاري: يمكن الجمع بأن خالداً لما حاز المسلمين وبات، ثم أصبح وقد غير هيئة العسكر كما تقدم، وتوهم العدو أنهم قد جاء لهم مدد، حمل عليهم خالد حينئذ فولوا فلم يتبعهم، ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى." انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة مؤتة من أرض الشام، ج٤، ص١٥٥٤، حديث رقم: (٤٠١٤).

- ابن كثير، **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٧٨.

(٣) وقعت سرية ذات السلاسل في جمادى الثانية سنة ثمان للهجرة كما قال ابن سعد، وبه قال الجمهور، وذلك عقب إسلام عمرو بن العاص كما تشعر به رواية أحمد، وستأتي بعد قليل في المتن، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم من طريق علي بن رباح "عن عمرو بن العاص قال: بعث إلي النبي ﷺ يأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي فقال: يا عمرو، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك، قلت: إني لم أسلم رغبة في المال. قال: نعم المال الصالح للمرء الصالح.". قال ابن حجر: "وروى أحمد والبخاري في الأدب وصححه أبو عوانة وابن حبان والحاكم" ثم ذكر الحديث، =

عثمان[1] أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر. فعد رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم،"[2] بل كانت إشارة رسول الله ﷺ -قبل إسلام خالد- واضحة في تمكين خالد بن الوليد لو أسلم وتقليده مهام عظمى تناسب تميزه الشخصي، كما دلت على ذلك الرسالة التي تركها له أخوه وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثلُ الإسلام جهله أحد؟! وقد سألني رسول الله عنك فقال: "أين خالد؟" فقلت: يأتي الله به. فقال: "مثله جهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له، ولقدَّمناه على غيره" فاستدرك يا أخي ما فاتك من مواطن صالحة" وقد أسلما رضي الله عنهما قبيل الفتح كما أخبر

= وقال: "وهذا فيه إشعار بأن بعثه عقب إسلامه، وكان إسلامه في أثناء سنة سبع للهجرة." وقد جعلها ابن إسحاق قبل مؤتة. انظر:

- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص١٣١،
- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٩، ص٣٤٦، حديث رقم: (١٧٨١٢).
- البخاري، **الأدب المفرد**، مرجع سابق، حديث رقم٢٩٩.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٧٥.

(١) هو أبو عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مل، من كبار الثانية، ثقة ثبت عابد، (توفي سنة: ٩٥هـ). انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص٦٠١، ترجمة رقم: (٤٠٤٣).

(٢) وصورة الحديث عند البخاري أنه مرسل، لكنه موصول لقول أبي عثمان: فقال فأتيته. فإن المراد عمرو بن العاص، وأبو عثمان سمع منه كما قال ابن حجر. ويؤكد ذلك رواية مسلم وفيها عن أبي عثمان، أخبرني عمرو. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة ذات السلاسل وهي غزوة لخم وجذام، ج٤، ص١٥٨٤، حديث رقم: (٤١٠٠).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، ج٤، ص١٨٥٦، حديث رقم: (٢٣٨٤).
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٢٧.

بذلك عمرو بن العاص في الحديث، ولفظ الرواية كما في مسند الإمام أحمد عن عمرو بن العاص قال: "لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، فقلت لهم : تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً كبيراً منكراً، وأني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده،..." وفيه"فقال (أي النجاشي) له: أتسألني أن أعطيك رسول[1] رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله. قال: قلت: أيها الملك أكذاك هو؟ فقال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة، فقلت أين يا أبا سليمان، قال: والله لقد استقام الميسم،[2] وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا على رسول الله ﷺ فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر. قال: فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو، بايع، فإن

---

(١) هو الصحابي عمرو بن أمية الضمري كما هو مثبت في هذه الرواية التي ذكرت منها وجه الشاهد، وهو صحابي جليل، أسلم حين انصرف المشركون من أحد، وأول مشاهده بئر معونة، أرسله الرسول ﷺ بكتاب إلى النجاشي في السنة السادسة بعد الحديبية. توفي زمن معاوية. انظر:

- ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٤٨.
- ابن حجر. **الإصابة في تمييز الصحابة**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٩٦.
- ابن سعد. **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٤٩.

(٢) قال السهيلي: "من رواه الميسم بالياء، فهي العلامة، أي: قد تبين الأمر واستقامت الدلالة، ومن رواه المنسم بفتح الميم والنون، فمعناه: استقام الطريق ووجبت الهجرة، والمنسم مقدم خف البعير، وكني به عن الطريق للتوجه به فيه." انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج١، ص٣١٧.
- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٣.

الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها. قال فبايعته ثم انصرفت" قال ابن إسحاق: "وقد حدثني من لا أتهم أن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة كان معهما أسلم حين أسلما."[1]

ويترتب بالنظر الدقيق والاستبصار العميق عن إحكام النص وتحكيمه وإحكام الواقع والموقع ضمن البعد المنهجي في مراعاة السنن نقطة رابعة وهي:

ث- إحكام النظر المآلي ورؤية المستقبل وعدم استعجال الثمرة، مع ما يستدعيه ذلك من فقه سنة الأجل وعدم الاستعجال. "فعن خباب بن الأرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتينا رسول الله وهو في ظل الكعبة متوسداً بردة له فقلنا: يا رسول الله، أدع الله لنا واستنصره. قال: فاحمر لونه أو تغير فقال: "لقد كان من قبلكم تحفر له الحفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم أو لحم أو عصب ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون."[2]

ففي هذا المشهد المؤثر دروس بليغة يرسلها رسول رب العالمين إلى رساليي هذه الأمة، ليعملوا بها دون أن يحيدوا عنها؛ لأنها سنن الله التي لا تتخلف. ولعل احمرار لون وجه رسول الله ﷺ وتغيره لطلب خباب الدعاء والاستنصار مرده إلى عدم فقه

---

(١) رواه: ابن إسحاق بسند حسن. والإمام أحمد في مسنده، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن في المتابعات والشواهد، والحاكم في مستدركه، وقال: "وهو صحيح على شرط مسلم." انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٨-٢٧٩.

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٩، ص٣١٢، حديث رقم: (١٧٧٧٧).

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٥٤.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، ج٣، ص١٣٢٢، حديث رقم: (٣٤١٦). وكتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ج٣، ص١٣٩٨، حديث رقم: (٣٦٣٩). وكتاب: الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، ج٦، ص٢٥٤٦، حديث رقم: (٦٥٤٤).

سنة الأجل، وأن لكل أجل كتاباً، وأن سنن التأييد والتوفيق (الدعاء والاستعانة بالله...) تجري جنباً إلى جنب مع سنن الهداية وتحصيل شروط النصر والتمكين، والصبر على معتركات الابتلاء والتدافع اليومي بين الحق والباطل، وبيانه ﷺ أنها سنة ربانية خلت في الذين من قبل، وهي نافذة مطردة. وفي هذه الواقعة النبوية إشارة إلى تلك العلاقة التلازمية بين التعجل وعدم امتلاك رؤية للمستقبل، ولذلك أخذ رسول الله ﷺ خباب بن الأرث نحو أزمنة وعوالم قادمة يكون من أحوالها حصول الأمن مع تمام الإيمان والخشية لله.

فالمانع من النظر في مآلات الأمور والحاجز عن رؤية المستقبل هو تلك النفسية الاستعجالية التي تتلبس بصاحبها فتفقده القدرة على تسخير إمكاناتها والمضي في حركة التدافع والتداول حتى يحقق الله وعده. ومن إحكام النظر المآلي فقه تسخير واستثمار الإمكانات المادية والبشرية، ولذلك لما جاء أبو ذر إلى رسول الله ﷺ، وسمع منه وأسلم، قال له النبي ﷺ: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري."[1] ومن ذلك أيضاً مارواه عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيةِ أَظُنُّ أَنَّ النّاسَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَأَنهمْ لَيْسُوا عَلَى شَيءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَاراً، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْفِياً، جُرَءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ؛ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: "أَنَا نَبيٌّ" فَقُلْتُ: وَمَا نَبيٌّ؟ قَالَ: "أَرْسَلَنِي الله" فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيءٍ أَرْسَلَكَ؟. قَالَ: "أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ الله لاَ يُشْرَكُ بِهِ شَيءٌ" قُلْتُ لَهُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: "حُرٌّ وَعَبْدٌ" (قال ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: مناقب الأنصار، باب: إسلام أبي ذر، ج٣، ص١٤٠١، حديث رقم: (٣٦٤٨).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي ذر، ج٤، ص١٩٢٣، حديث رقم: (٢٤٧٤).

به) فَقُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ. قَالَ: "إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلاَ تَرَىٰ حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَىٰ أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي"[1] ومن ذلك أيضاً إرساله ﷺ أصحابه إلى الحبشة، وعرض دعوته على القبائل، وبيعة العقبة الأولى والثانية، وعدم مواجهة المنافقين عسكرياً، وإتمام صلح الحديبية، ومراسلة الملوك والأمراء... وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في غير هذا الموضع مع ذكر ما تعلق بذلك من الروايات وتخريجها.

٢- البعد الوظيفي للكليات السننية:

ليست الكليات السننية رؤى مجردة أو استيهامات حالمة أو صياغات نظرية جامدة، وإنما هي أصول إيمانية وقواعد تشريعية وأسس عملية تجلت في سيرة رسول الله ﷺ مجسدة لمقاصد الدين في إقامة العمران، وترشيد الفعل الحضاري للإنسان الباني للعمران والحضارة. ويتجلى هذا البعد الوظيفي للسنن في توفير الشرط اللازم والضروري للفعالية النموذجية الحضارية القصوى، وذلك بما تتيحه الكليات السننية من تسريع وتجويد وتيرة الأداء والإنجاز. ويندرج ضمن ذلك سنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدرج في التغيير والبناء، وسنة الابتلاء، وسنة التدافع...

فمن شواهد وظيفية السنن في تحقيق إنجازات متدرجة ومتماسكة يقوم عليها العمران البشري ما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:[2] "إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: إسلام عمرو بن عبسة، ج٢، ص٦٣٧، حديث رقم: (٤٣٨٥).

(٢) كان بعث معاذ في سنة عشر، وفي قول آخر سنة تسع، وفي قول ثالث سنة ثمان عام الفتح، ومع ذلك لم يأت ذكر للصوم والحج في الحديث. وقد ذكر ابن حجر قولاً لابن الصلاح اتهم فيه رواة الحديث بالتقصير، فلم يذكروا الصوم والحج، وهو ما قد يفضي إلى عدم الوثوق بكثير من الأحاديث النبوية، مما دفع بالعلماء إلى تغليط رأي ابن الصلاح. ثم ذكر ابن حجر جواب الكرماني، ثم عرج على جواب شيخه البلقيني فقال: "وقال شيخنا شيخ الإسلام (يقصد سراج الدين البلقيني): إذا كان الكلام في بيان

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب."[1]

ومن شواهد وظيفية السنن المتعلقة بتغيير ما بالأنفس ما جاء في حديث "عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] أن رسول الله ﷺ أتي بمال أو سبي فقسمه فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فوالله

الأركان لم يخل الشارع منه بشيء كحديث ابن عمر: بني الإسلام على خمس" فإذا كان في الدعاء إلى الإسلام اكتفي بالأركان الثلاثة: الشهادة والصلاة والزكاة، ولو كان بعد وجود فرض الصوم والحج كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥، ١١] في موضعين من (براءة) مع أن نزولها بعد فرض الصوم والحج قطعاً، وحديث ابن عمر أيضاً: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وغير ذلك من الأحاديث، قال: والحكمة في ذلك أن الأركان الخمسة: اعتقادي وهو الشهادة، وبدني وهو الصلاة، ومالي وهو الزكاة. اقتصر في الدعاء إلى الإسلام عليها، لتفرع الركنين الأخيرين عليها، فإن الصوم بدني محض، والحج بدني مالي، وأيضاً فكلمة الإسلام وهي شاقة على الكفار، والصلوات شاقة لتكررها، والزكاة شاقة لما في جبلة الإنسان من حب المال، فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها. والله أعلم." انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص٦٣١.

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، ج٤، ص١٥٨٠، حديث رقم: (٤٠٩٠). وفي كتاب: الزكاة، باب: باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، ج٢، ص٥٤٤، حديث رقم: (١٤٢٥).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، ج١، ص٥٠، حديث رقم: (١٩).

(٢) عمرو بن تغلب العبدي. من عبد القيس، صحابي معروف، نزل الصفة وسكن البصرة. عاش إلى خلافة معاوية. انظر:

- ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٥١.

- ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، مرجع سابق، ج٤، ص٥٠٠.

إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكني إنما أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير؛ فيهم عمرو بن تغلب. قال عمرو بن تغلب: فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم."[1] قال ابن حجر: "وفيه أن الرزق في الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق في الآخرة، وأما في الدنيا فإنما تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية، فكان النبي ﷺ يعطي من يخشى عليه الجزع والهلع لو منع، ويمنع من يثق بصبره واحتماله وقناعته بثواب الآخرة، وفيه أن البشر جبلوا على حب العطاء وبغض المنع والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة في عاقبته إلا من شاء الله"[2] ولذلك صدر من بعض الأنصار ممن كانوا حدثاء الأسنان اعتراضاً على توزيع النبي ﷺ غنائم حنين حتى قالوا: "إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة غيرنا."[3] وقد ثبت في حديث أنس بن مالك كما في الصحيح أن هذا القول لم يصدر من فقهاء الأنصار، ففي الحديث "وأما أناس منا حديثة أسنانهم، فقالوا يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم."[4] و"عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جمع

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد، ج١، ص٣١٢، حديث رقم: (٨٨١). وفي كتاب: فرض الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ج٣، ص١١٤٦، حديث رقم: (٢٩٧٦). وفي كتاب: التوحيد، باب: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، ج٦، ص٢٧٤١، حديث رقم: (٧٠٩٧).

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١٣، ص٥١١.

(٣) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، حديث رقم٤٣٣٧.

(٤) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، ج٤، ص١٥٧٤، حديث رقم: (٤٠٧٦).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، ج٢، ص٧٣٣، حديث رقم: (١٠٥٩).

النبي ﷺ ناساً من الأنصار فقال: "إن قريشاً حديث عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم. أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى. قال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار."[1]

وقد أوردت كتب السنة -ومنها الصحيحان- وكتب السير والمغازي أن النبي ﷺ أعطى يوم حنين أبا سفيان، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس، وعلقمة بن علاثة[2] مائة من الإبل لكل واحد منهم، وأكمل للعباس بن مرداس المائة بعد أن أعطاه دونها، حتى صار أحب الناس إليهم.[3]

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. وذكره ابن إسحاق بسند حسن. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، ج٤، ص١٥٧٥، حديث رقم: (٤٠٧٨).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، ج٢، ص٧٣٣، حديث رقم: (١٠٥٩).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٩٨-٤٩٩.

(٢) علقمة بن علَاثَة الكنديّ العامريّ. من المؤلَّفة قلوبهم، وكان سيداً في قومه، كان ارتدَّ بعد رسول الله ﷺ ولحق بقَيْصَر، ثم انصرف عنه، وعاد إلى الإسلام. واستعمله عمر على حوران ومات بها.

- ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، مرجع سابق، ج٣، ص١٩٥.
- ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٥٥.

(٣) أشار ذلك البخاري ومسلم، وذكر ابن إسحاق بعض أسمائهم، وسرد ابن حجر أسماءهم، وقد بسط الشاطبي دليل إيثار النبي ﷺ في بعض الغنائم قوماً ضمن أدلة صحة الاجتهاد القائم على تحقيق المناط، ولا أدري وجه ذكر دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هامش الصفحة المذكورة من الموافقات، لشاهد من حديث كعب بن مالك للتدليل على إيثار النبي ﷺ في بعض الغنائم قوماً فقال: (أي الشيخ دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ)" ككعب بن مالك حيث أراد أن ينخلع عن ماله بعد قبول توبته، فقال: "أمسك عليك... " وإنما يصلح هذا الشاهد كما ورد في متن الموافقات، في بيان قبوله ﷺ المال كله من بعض الصحابة كأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وندب غيره إلى استبقاء بعضه ككعب بن مالك، ولايصلح في مقام الشاهد على إيثار النبي ﷺ في بعض الغنائم قوما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، =

ومن شواهد وظيفية السنن المتعلقة بقلب موازين التدافع من خلال رؤية المشهد الكلي للموقف التدافعي للطرف الآخر، واستثمار فرص تغيير ما بالأنفس للتحكم في معطيات المحيط التدافعي، مارواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "بَعث النبيّ ﷺ خيلاً قِبلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفةَ يقال له: ثُمامة بن أُثال، فرَبطوهُ بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيّ ﷺ فقال: ماذا عندَك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ. يا محمدُ إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كنت تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئتَ. فتُرِكَ حتى كان الغَد ثم قال لهُ: ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: ما قلتُ لك: إن تُنعِم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعدَ الغدِ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. فقال: أطلقوا ثمامة. فانطلَقَ إلى نخلٍ قريبٍ من المسجدِ فاغتسلَ، ثم دخل المسجدَ، فقال: أشهد أن لا إلهَ إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله. يا محمد، واللهّ ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وَجهِك، فقد أصبحَ وَجهُكَ أحبّ الوجوهِ إليّ. واللهّ ما كان من دِينٍ أبغضَ إليّ من دِينك، فأصبح دينك أحبّ الدّين إليّ، واللهّ ما كان من بلد أبغضَ إليّ من بلدك، فأصبحَ بلدُكَ أحبّ البلاد إليّ. وإن خَيلَكَ أخذتني، وأنا أُريد العمرةَ، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ، وأمَرَه أن يَعتمر. فلما قدِمَ مكة قال له قائل: صَبوت؟ قال: لا والله، ولكن أسلمتُ مع محمدٍ رسول اللهّ ﷺ، ولا واللهّ لا يأتيكم من اليمامَةِ حَبةُ حِنطة حتى يأذَن فيها النبيّ ﷺ."[1]

= ج٤، ص١٥٧٥، حديث رقم: (٤٠٧٨).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، ج٢، ص٧٣٣، حديث رقم: (١٠٥٩).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٩٤-٤٩٦.

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٥٠.

- الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٧٠.

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وقد كان وفد بني حنيفة سنة تسع، لكن قصة ثمامة بن أثال كانت قبل فتح مكة كما يدل عليه سياق الرواية حيث قصد مكة للعمرة وعلمت قريش بإسلامه فاجترأت =

ومن شواهد وظيفية السنن ما تعلق منها بسنن التدرج في إدارة التدافع، وتقدير قوة الآخر، والموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة عن الإقدام على خطوة من خطوات التدافع السلمي بعيداً عن التدافع التناحري أو الانتحاري الاعتزالي، حيث لم يكن يخوضها الرسول ﷺ؛ فلم يكن يرغب في استئصال قريش والطائف، ولم يكن يرغب في مغادرة ساحات التدافع واعتزالها دون أن تتحقق هداية الناس، كما هو واضح يوم عودته من الطائف لما أخرج من مكة، فلم يعتزل الدعوة ولم يذهب مغاضباً. وهي إشارة إلى أن المشروع الرسالي لهذه الأمة لا يتحقق أبداً من خلال خيار التدافع الانتحاري الاعتزالي الذي يخلي ساحة التدافع لصولة الباطل، فكان أن اتجه رسول الله ﷺ إلى الطائف، ولاقى منهم ما لاقى، ثم بدأ عرض دعوته على القبائل مستثمراً فرصة الحج، ومتنقلاً بين أسواق العرب وقبائلهم، مفاوضاً لهم لعله يجد من يؤمن برسالته ويقدم لها النصرة والمنعة، فكان ذلك الشرف من نصيب الأنصار. ثم بدأت جولة ثانية من جولات التدافع التي خاضها الرسول بالمدينة ومن خلال تبليغه لرسالة الدين الحق حتى أنجز الله له وعده.

كما أن المشروع الرسالي لهذه الأمة لا يتحقق أبداً من خلال خيار التدافع التناحري الاستئصالي الذي يرى في إلغاء الآخر واستئصاله شرطاً في تولي قيادة شؤون المجتمع حتى في أحلك الظروف، فقد أخرج الإمام البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سألت رسول الله ﷺ: "هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك

= عليه، فلما خرج إلى اليمامة منعهم ما يأتيهم منها حتى شق ذلك عليهم كما ذكرت ذلك روايات أهل المغازي. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: وفد بني حنيفة، حديث ثمامة بن أثال، ج٤، ص١٥٨٩، حديث رقم: (٤١١٤).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، ج٣، ص١٣٨٦، حديث رقم: (١٧٦٤).

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص ٦٣٨.

ما لقيت! وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب،[1] فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً."[2]

ومن يتأمل نفسية النبي ﷺ وهو عائد من الطائف يتفطر قلبه وتدمع عيناه وتستيقظ في دواخل نفسه الرغبة في أن يتدخل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوعيده الذي لا يرد عن القوم الكافرين، ثم تشرئب نفسه ويشعر بحال من الطمأنينة والفخر حينما يرد مشهد ملاقاة جبريل لرسول الله مخبراً إياه أن ملك الجبال طوع أمره، ولعمري إنها فرصة تاريخية على الأقل لرد الاعتبار لإهلاك الجماعة المشركة المعارضة المحاربة وإخلاء الأرض من طغيانها وجبروتها، فتتمكن الجماعة المؤمنة من أداء شعائرها وعبادة ربها، لكنه رسول الله ﷺ صاحب الخلق العظيم والنظر البعيد والبصيرة النافذة التي ترى بنور الله، يعرض عن هذا الخيار الاستئصالي مقبلاً على الله برجاء صادق: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً" وكذلك كان. ثم إن الفرصة واتت النبي ﷺ مرة أخرى حيث لم تستجب ثقيف وحاربت رسول الله ﷺ يوم حنين، ثم لجأت إلى الحصن فحاصرها[3] النبي ﷺ ومن معه من الصحابة أربعين

---

(١) قرن الثعالب: ميقات أهل نجد ويقال له قرن المنازل. انظر:

- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص١٧٢.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم "آمين" والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ج٣، ص١١٨٠، حديث رقم: (٣٠٥٩). وفي كتاب: التوحيد، باب: وكان الله سميعاً بصيراً، ج٦، ص٢٦٩٠، حديث رقم: (٦٩٥٤).

(٣) وقع حصار الطائف في شوال سنة ثمان للهجرة منصرفه ﷺ من حنين. انظر: =

ليلة[1] وفي عز اشتداد الحصار على ثقيف وما أصاب المسلمين من جراحات قوية هب الصحابة يرجون دعاء الرسول عليهم حين أعجزتهم أنفسهم عن فتح الطائف، فكان الرد ما رواه جَابِر بن عبد الله، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَخْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ فَادْعُ الله عَلَيْهِم، قَالَ: "اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفاً."[2]

ومن شواهد وظيفية السنن التدافعية المتعلقة بتقدير درجة عقدة الموقف التدافعي والإمكانات المتوافرة، والتهديدات المتوقعة، والتكاليف المترتبة عن اتخاذ أيّة خطوة عملية لإنجاز عملية التدافع في الاتجاه الإيجابي أن النبي ﷺ لم يكسر صنماً وهو بمكة، ولم يدع أصحابه إلى ذلك، وبقي بالمدينة دون أن يتخذ قرار الهجوم على مكة لإخلائها من الأصنام، بل صار إلى مكة معتمراً في السنة السادسة من الهجرة، فمنعته قريش ووقع الصلح، فكانت عمرة القضاء في العام الموالي من ذي القعدة سنة سبع

= – ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٨٧.

– ابن عبد البر، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، مرجع سابق، ص١٦٩.

– ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٠.

(١) من حديث أنس بن مالك الذي أخرجه مسلم. انظر:

– **القشيري، صحيح مسلم**، مرجع سابق، في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، ج٢، ص٧٣٣، حديث رقم: (١٠٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. قلت: في سنده عبد الله بن عثمان بن خثيم القاري المكي مختلف فيه؛ منهم من وثقه كيحيى بن معين، ومنهم من ضعفه كالدارقطني، و عَبْد الرَّحْمَنِ بْن سَابِطٍ ثقة، وإِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكَرِيَّا صدوق، وللحديث شواهد أخرى، وهو بذلك لا ينزل عن رتبة الحسن، والله أعلم. انظر:

– الترمذي، **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، كتاب: المناقب، باب: مناقب ثقيف وبني حنيفة، حديث رقم٣٩٤٢.

– ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٨، ص٤٥.

– ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص١٣٩، و٥٧٩.

– ابن سعد. **الطبقات الكبرى**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٠٢.

للهجرة،[1] وطاف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبيت ومعه أصحابه والأصنام ما تزال منصوبة بالبيت تقديراً منه لدرجة عقدة الموقف التدافعي، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "أَنّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِراً، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَنَحَرَ هَدْيَهُ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ، وَلَا يَحْمِلَ سِلَاحاً عَلَيْهِمْ إِلَّا سُيُوفاً، وَلَا يُقِيمَ بِهَا إِلَّا مَا أَحَبُّوا، فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالَحَهُمْ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثاً، أَمَرُوهُ أَنْ يَخْرُجَ، فَخَرَجَ"[2] ولم يعمد ﷺ إلى تكسير الأصنام حتى كان يوم فتح مكة حيث أسلم غالب مشركي قريش، فعن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: "دخل رسول ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده و يقول: "جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد."[3] ومن تلك الشواهد أيضاً ذلك المشهد الذي حضره سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن كان معه من أهل بيعة الرضوان ممن شهد الحديبية، فعن أبي وائل قال: "قام سهل

---

(١) ذكر ذلك ابن إسحاق، وبه قال ابن حجر معتمداً على رواية يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر: "كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع"، وسليمان التميمي في مغازيه. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٧٠.
- ابن عبد البر، **الدرر في اختصار المغازي والسير**، مرجع سابق، ص١٥٣.
- ابن حزم. **جوامع السيرة**، مرجع سابق، ص١٣٠.
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٥٠٠.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الصلح، باب: الصلح مع المشركين، ج٢، ص٩٦١، حديث رقم: (٢٥٥٤). وكتاب: المغازي، باب: عمرة القضاء ذكره أنس عن النبي ﷺ، ج٤، ص١٥٥٢، حديث رقم: (٤٠٠٦).

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، ج٤، ص١٥٦١، حديث رقم: (٤٠٣٦).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، ج٣، ص١٤٠٨، حديث رقم: (١٧٨١).

بن حنيف يوم صفين فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل. قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً. قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل. قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار. قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً.

قال: فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه فقال: يا رسول الله، أو فتح هو. قال: نعم. فطابت نفسه ورجع"[1] قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] المراد بالفتح هنا الحديبية؛ لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح، وقد ذكر ابن إسحاق في المغازي عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتح قبل فتح الحديبية أعظم منه...

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجزية والموادعة، باب: إثم من عاهد ثم غدر، ج٣، ص١١٦٢، حديث رقم: (٣٠١١). ومطولاً في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج٢، ص٩٧٤، حديث رقم: (٢٥٨١).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية في الحديبية، ج٣، ص١٤١١، حديث رقم: (١٧٨٥).

وهذه الآية نزلت منصرفهﷺ من الحديبية كما في هذا الباب من حديث عمر، وأما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه السورة: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨] فالمراد به فتح خيبر على الصحيح لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة للمسلمين."[1]

٣- البعد "الاستراتيجي" للسنن:

إذا كانت "الاستراتيجية" هي "المنطق الموحد الذي يعطي التماسك والاتجاه للأفعال والقرارات للفرد والمنظمة،"[2] فإن السنن من حيث مركزيتها في عملية التدافع والتداول والتجديد والبناء هي التي تكسب "الاستراتيجية" وجاهة وقوة عملية بفعل تناغم "الاستراتيجية"مع سنن الله تعالى ومجاراتها لها.

وإذا كنا قد أشرنا في الباب الأول إلى الطابع الاستشرافي للسنن، فهو يبدو هنا أكثر جلاء من حيث إن "الاستراتيجية" هي التي تحدد كيفية وطريقة التعامل مع المتغيرات المتوقعة في المستقبل، وتحسم طبيعة القرارات المتخذة وفق أنظمة مضبوطة لمواجهة هذا المستقبل. وقد تجلى هذا البعد "الاستراتيجي" للسنن في حركة النبي ﷺ وأفعاله وقراراته ومخططاته التي تظهر مدى القدرة على الإبصار ورؤية المستقبل، وإحكام فقه الضروريات والحاجات والتحسينات، وضبط دائرة الموازنات والأولويات، وتقدير سياقات الوقائع والأحداث، واعتبار الواقع المحلي والإقليمي والعالمي، وتقويم البدائل المحتملة. ويظهر هذا البعد الاستراتيجي من خلال حدث الهجرة إلى الحبشة والبحث عن مكان آمن يعمل على حماية "الاحتياطي الاستراتيجي" للموارد البشرية، الذي لم يغامر ﷺ باتخاذ قرار عودته إلا بعد صلح الحديبية ووافق مجيئهم فتح خيبر، وقد كان ذلك "الاحتياطي الاستراتيجي" البشري يمثل شريحة البدء التي تتنافى قواعدها مع التكديس أو استعجال الدخول في معترك التدافع حيث لم

---

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٤٢.

(٢) سلطان، جاسم محمد. **التفكير الاستراتيجي والخروج من المأزق الراهن**، المنصورة: مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، ط٢، (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص٤٥.

تكتمل بعد دورة الابتلاء، لكي يليها بعد ذلك التداول والتجديد.

لذلك اتخذ ﷺ خطوة أساسية بعدم إبقاء من آمن به من رجالات القبائل المجاورة لمكة معه حتى يظهر أمره ضماناً لآلية تواصلية فعالة خارج مكة تشكل متنفساً حقيقياً للدعوة، ورصيداً احتياطياً تحسباً لما يمكن أن يقع للجماعة المؤمنة بمكة. فقد روى مسلم خبر إسلام عمرو بن عبسة، وفيه، "فقلت: إني متبعك، قال: "إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني."[(١)] ففي قوله ﷺ: "ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي ظهرت فأتني" نأخذ منه درساً في الدعوة: "إن تكديس المريدين والأعضاء حيث المحنة والإيذاء ليس هو الأصل، فهذا رسول الله ﷺ يوجه نحو الرجوع إلى الأقوام، وأمر كما نرى بالهجرتين إلى الحبشة، فذلك تخفيف عن المسلمين وإبعاد لهم عن مواطن الخطر وستر لقوة المسلمين، وإعطاء فرصة للقائد حتى لا ينشغل، وضمان للسرية، وإفادة للمكان المرسل إليه، وإعداد للمستقبل وملاحظة لضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال،"[(٢)] وكذا ما رواه البخاري من حديث إسلام أبي ذر، وفيه، فقال له النبي ﷺ: "ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري."[(٣)] وقوله ﷺ يوم الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم."[(٤)] دال على ذلك "التحول الاستراتيجي" في الفعل النبوي

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤٧٣) من هذا الكتاب.

(٢) حوّى، سعيد. **الأساس في السنة وفقهها «السيرة النبوية»**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٣، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ج١، ص٢٢٦. وانظر أيضاً:

- الصلابي، محمد. **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث**، بيروت: دار المعرفة، ط٢، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص١١٩.

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٤٧٢) من هذا الكتاب.

(٤) البخاري. **الجامع الصحيح**، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق وهي الأحزاب، ج٤، ص١٥٠٩، حديث رقم: (٣٨٨٤).

قال ابن حجر: "وفيه علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ." انظر: =

الذي لم يعد حبيس الخيار الدفاعي، بل تحول إلى حركة مبادأة ومبادرة ترسم الخطط القادمة وتتقدم بخطوات ثابتة نحو الهدف الرسالي. فـ"نحن نسير إليهم" هو سير مستقبلي استباقي استبصاري، و"نظر استراتيجي" في إدارة أية أزمة محتملة، كما أنه رسم لمشاهد مستقبلية متعددة ومرنة ومنفتحة دالة على قوة البدائل وتعدد الخيارات.

ثانياً: المداخل الأساسية للكليات السننية

يستدعي الحديث عن الكليات السننية للعمران البشري في السيرة النبوية ضبط مجموعة من المداخل الأساسية، فهي بمثابة النواظم المعرفية التي تشكل فهم العقل المسلم لتحولات الحقل الاجتماعي والسياسي، وتدفعه للبحث عن خيارات متعددة وبدائل متنوعة يحافظ من خلالها على مكتسبات الأمة، ويعمل على تطويرها بفعالية وأصالة واطراد، ويسعى لوضع "استراتيجية" وقائية تحمي المشروع العمراني البشري الإسلامي من عوامل الانكسار والهزيمة. وتنبني هذه المداخل على قضايا جوهرية أهمها:

- أن سنن طبائع الاجتماع والعمران البشري مركوزة في الفطرة الإنسانية ومبثوثة في ظواهر الوجود وبها تحقق للرسول ﷺ النصر والتمكين ومن بينها: سنن التآلف، والتظاهر، والتدافع، والتعاون، والتعارف وغيرها. وحينما يلامس العقل السنني الإسلامي فطرة الإنسان ويتناغم معها فإنه يخطو الخطوة الكبرى في إنجاز مشروع العمران الإسلامي العالمي.
- الرؤية التوحيدية الكونية القرآنية الموجهة للكليات السننية، كما تجسدت في حركة النبي ﷺ في بناء العمران البشري الإسلامي، فالرؤية هي المرجعية العليا الناظمة لكل فهم يتخذ من السيرة النبوية مصدراً لاستنباط الكليات السننية للعمران البشري، وهذا يعني أن نتائج كل فهم واستنباط لهذه الكليات من السيرة النبوية لا يسلم له إلا بقدر اعتماده على الرؤية السننية

= - ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٠٥.

القرآنية وعدم تناقضها معها، فالقرآن حاكم مهيمن على الأفهام، مصدق للحق الذي تفصح عنه.

- قضية الموازنة بين فقه سنة "كلُّ شيء بقَدَر"، وفقه سنة "اتباع الأسباب" في الفعل النبوي. وهو ما يؤسس لرفض منطق الجبرية أو قراءة لاهوتية للسيرة تضفي عليها طابع التقديس والإطراء وتعطل جانب التأسي المقاصدي الكلي. وحينما حصل في تاريخ الأمة اضطراب في فهم علاقة القدر بالفعل الإنساني والمنطق السنني برزت على سطح الساحة الاجتماعية للأمة الإسلامية نزعات جبرية استسلامية عطلت الجهد الإنساني في اتخاذ السيرة النبوية مصدراً للفاعلية الإنسانية التعميرية، ونزعات انسحابية استبدلت منطق الكرامات بمنطق الفعالية والمبادرة والتجديد. ويتفرع عن قضية الموازنة بين فقه سنة "كلُّ شيء بقَدَر"، وفقه سنة "اتباع الأسباب" في الفعل النبوي وجوب منازعة السنن ومدافعة بعضها ببعض، على طريقة منازعة الأقدار شرِّها بخيرها وأحبِّها إلى الله تعالى.

- يتفرع عن القضية السابقة جريان الجهد النبوي في إقامة العمران والاجتماع على سلوك سبيل السنن، وعدم تنكبها، وربط الأسباب بمسبباتها، فلم يكن ينصرف عنها، بل كان يتعامل مع كل لحظة أو ظرف أو مستجد بما يناسبه من تدبير وتخطيط وتنفيذ ومتابعة وتقويم، وهو في ذلك كله متوكل على ربه يتضرع إليه أن يمده بعونه ونصره، حتى إذا استكمل حلقات سنن عالم الشهادة تنزلت لطائف سنن عالم الغيب كما حدث يوم بدر وغيره، يقول الصادق عرجون معلقاً على تنزل الملائكة يوم بدر: "وهاهي لوائح تنزل السنن الخاصة تلوح معالمها لتأخذ مكانها في جهاد المسلم القتالي الذي أُلجئ إليه إلجاء؛ لأن الموقف بلغ مرحلة التطلع إلى تنزل تلك السنن الخاصة بعد أن انتهت مرحلة السنن الكونية العامة التي ترتبط بالأسباب المقتضية لمسبباتها،

بانتهاء التدبير في مقدمات لقاء العدو، وابتداء نشوب المعركة بين قوتين تتفاوت أوضاعهما المادية تفاوتاً يجعل من المستبعد، بل من المحال أن تقف القلة المؤمنة أمام الكثرة الضخمة في أقصى تأهبها في ظل الترابط بين الأسباب والمسببات بمقتضى نظام السنن الكونية العامة."[1]

- أن التصرفات النبوية في مقامات الأخذ بالسنن ومراعاتها ودفع بعضها ببعض في سياسة الأمة، وتدبير نظام الدولة وبناء العمران البشري كانت في ذلك كله موافقة لسنة الله القدرية العمرانية وسنته التشريعية الدينية. واعتماد هذه القضية في فهم وقائع السيرة وأحداثها يمكن قارئ السيرة من المنظور السنني المتكامل الذي يجمع بين كثير من الروايات الصحيحة التي يبدو من ظاهرها التعارض، وهو منظور يعمل قواعد الجمع، فإن تعذرت فقواعد الترجيح، بل نذهب إلى القول بضرورة حضور فقه الكليات السننية عنصراً أساسياً من عناصر فقه الرواية والتثبت من صحة متنها، فالواقعة في السيرة النبوية أو الحديث النبوي إن اختلف في تصحيحها أو تضعيفها صار النظر إلى مدى مخالفتها للكليات السننية أو عدم مخالفتها لها. فإن جزم بمخالفتها للكليات السننية عد ذلك مرجحاً من مرجحات التضعيف، ويبقى مع ذلك هذا المرجح مرجحاً اجتهادياً ظنياً لكن يؤول إليه النظر لتقوية جانب الصحة أو الضعف.

- النسقية الكلية المتوازنة المتكاملة لسنن التسخير وسنن الاستخلاف كما تبدت في الفعل النبوي، وهو يشيد عمران العالم، فلا يمكن لقارئ السيرة إلا أن يقف على ذلك التوازن النموذجي في فعل الرسول ﷺ بين منظومة سنن الهداية ومنظومة سنن التأييد التسخيريتين وهو يخوض ابتلاءات وتدافعات استخلافية. ولذلك عاب ﷺ على مشركي قريش هذا الفصام المعرفي في

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٨٣.

رؤيتهم لعالم السنن حين أعرضوا عن سنن الهداية وعارضوها فلم يستجيبوا لمقتضياتها، ثم هم يسعون إلى رسول الله ﷺ بلا استحياء ولا خجل من أنفسهم يرجون منه أن يدعو الله تعالى، فيكشف عنهم ما أصابهم من الجهد والبلاء، ففصلوا بين متطلبات سنن الهداية ومقتضيات سنن التأييد، فعن عبد الله بن مسعود قال: "إنما كان هذا؛ لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠-١١]. قال: فأتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. قال: (لمضر؟ إنك لجريء). فاستسقى فسقوا. فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١٥] فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٦]. قال: يعني يوم بدر."[1]

- المداخل الأساسية للكليات السننية من خلال مفاوضات النبي ﷺ مع بني شيبان.

لم يتنكب الرسول ﷺ سنن التحولات الاجتماعية حين لم تعد قريش مؤهلة لحمل الرسالة إلى العالم، وحاصرت دعوة رسول الله ﷺ بعد وفاة زوجه خديجة بنت خويلد رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وعمه أبي طالب. وإذا كانت "استراتيجية" العمل ستتخذ منحى آخر في "الحركة النبوية" وفق سنن الله في إقامة العمران من خلال إمضاء التداول والتدافع

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ج٤، ص١٣٨٢، حديث رقم: (٤٥٤٤). وباب: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، ج٤، ص١٨٢٣، حديث رقم: (٤٥٤٥). وباب: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، ج٤، ص١٨٠٩، حديث رقم: (٤٥٣١). وباب: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾، ج٤، ص١٨٢٤، حديث رقم: (٤٥٤٧). وفي هذه الرواية الأخيرة ذكر اسم الرجل الذي جاء يسأل رسول الله ﷺ دعاء الله بكشف الضر؛ وهو أبو سفيان. وتبين بعض الروايات في البخاري سياق الحديث حيث دعا رسول الله ﷺ على قريش لما غلبوه واستعصوا عليه فقال: "اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف".

والتجديد بعد اشتداد واكتمال حلقات سنة الابتلاء، فإن هذه "الاستراتيجية" ستقوم على البحث عن تكتل اجتماعي يمنح دعوة النبي ﷺ المنعة والنصرة والإيواء بعد أن يستجيب هذا التكتل الاجتماعي للإيمان برسالة الدين ومبادئه وقيمه، وما يتطلب ذلك من البذل والتضحية والعطاء. ولا ضير من عرض الرواية التي خلدت تلك "الحركة النبوية" خارج مكة وهي تستشرف مستقبل العمران الشهودي العالمي، وترنو نحو تحقيق الظهور الأولي الكلي للدين.

"فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، حَتَّى دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَسَلَّمَ، وَقَالَ: مِمَّنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: مِنْ رَبِيعَةَ، قَالَ: وَأَيُّ رَبِيعَةَ أَنْتُمْ؟ أَمِنْ هَامَتِهَا أَمْ مِنْ لَهَازِمِهَا؟[1] فَقَالُوا: لا، بَلْ هَامَتُهَا الْعُظْمَى، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَأَيُّ هَامَتِهَا الْعُظْمَى أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ ذُهْلٍ الأَكْبَرِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَمِنْكُمْ عَوْفٌ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: لا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَمِنْكُمْ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ صَاحِبُ اللِّوَاءِ وَمُنْتَهَى الأَحْيَاءِ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَمِنْكُمْ جَسَّاسُ بْنُ مُرَّةَ حَامِي الذِّمَارِ[2] وَمَانِعُ الْجَارِ؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَمِنْكُمُ الْحَوْفَزَانُ[3] قَاتِلُ الْمُلُوكِ سَالِبُهَا أَنْفُسَهَا؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فَمِنْكُمْ أَصْهَارُ الْمُلُوكِ مِنْ لَخْمٍ؟ قَالُوا: لا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَلَسْتُمْ إِذاً ذُهْلاً الأَكْبَرَ، أَنْتُمْ ذُهْلُ الأَصْغَرُ. فَقَامَ إِلَيْهِ غُلامٌ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ، يُقَالُ لَهُ: دَغْفَلٌ[4] حِينَ بَقَّ وَجْهُهُ،[5] فَقَالَ: عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ، يَا هَذَا، إِنَّكَ سَأَلْتَنَا فَأَخْبَرْنَاكَ وَلَمْ نَكْتُمْكَ، فَمِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ الْفَتَى: بَخٍ بَخٍ، أَهْلُ

(١) اللهازم جمع لهزمة بالكسر، واللهزمتان عظمتان ناتئتان في اللحيين تحت الأذنين.

(٢) حامي الذمار؛ أي إذا ذمر وغضب حمى. وذمر؛ أي حث يقال تذامر القوم؛ أي حث بعضهم بعضاً وذلك في الحرب، وذمر الأسد إذا زأر.

(٣) الحوفزان بفاء وزاي، هو: لقب الحارث بن شريك الشيباني، لقب بذلك؛ لأن قيس بن عاصم التميمي حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته.

(٤) دغفل، هو: ابن حنظلة النسابة، أحد بني شيبان. والدغفل: ولد الفيل، قاله الجوهري.

(٥) بقل وجهه: خرجت لحيته.

الشَّرَفِ وَالرِّئَاسَةِ، فَمِنْ أَيِّ الْقُرَشِيِّينَ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ وَلَدِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: أَمْكَنْتَ وَالله الرَّامِيَ مِنْ صَفَاءِ الثَّغْرَةِ، فَمِنْكُمْ قُصَيٌّ الَّذِي جَمَعَ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرٍ فَكَانَ يُدْعَىٰ فِي قُرَيْشٍ مُجَمِّعاً؟ قَالَ: لا، قَالَ: فَمِنْكُمْ هَاشِمٌ الَّذِي هَشَّمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ، وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ[1] عِجَافٌ؟ قَالَ: لا، قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ الْحِجَابَةِ أَنْتَ؟ قَالَ: لا، قَالَ: فَمِنْ أَهْلِ النَّدْوَةِ أَنْتَ؟ قَالَ: لا، قَالَ: فَمِنْكُمْ شَيْبَةُ الْحَمْدِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مُطْعِمُ طَيْرِ السَّمَاءِ الَّذِي كَأَنَّ وَجْهَهُ الْقَمَرُ يُضِيءُ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ الدَّاجِيَةِ؟ قَالَ: لا، فَمِنْ أَهْلِ السِّقَايَةِ؟ قَالَ: لا، وَاجْتَذَبَ أَبُو بَكْرٍ زِمَامَ النَّاقَةِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ الْغُلامُ: صَادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ دَرْءاً يَدْفَعُهُ يَهِيضُهُ[2] حِيناً وَحِيناً يَصْدَعُهُ أَمَا وَالله لَقَدْ ثَبَتَ، قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ! لَقَدْ وَقَعْتَ مِنَ الأَعْرَابِيِّ عَلَىٰ بَاقِعَةٍ![3] فَقَالَ لِي: أَجَلْ يَا أَبَا الْحَسَنِ![4] مَا مِنْ طَامَّةٍ إِلا وَفَوْقَهَا طَامَّةٌ، وَالْبَلاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ، قَالَ عَلِيٌّ: ثُمَّ دَفَعْنَا إِلَىٰ مَجْلِسٍ آخَرَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ مُقَدَّماً فِي كُلِّ خَيْرٍ فَسَلَّمَ، وَقَالَ: مِمَّنِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: مِنْ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، مَا وَرَاءَ هَذَا الْقَوْمِ غِرٌّ، هَؤُلاءِ غُرَرٌ[5] قَوْمُهُمْ، وَفِيهِمْ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو، وَهَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ، وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ، وَكَانَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو قَدْ غَلَبَهُمْ جَمَالا وَلِسَاناً، وَكَانَ لَهُ غَدِيرَتَانِ[6] تَسْقُطَانِ عَلَىٰ تَرِيبَتِهِ، وَكَانَ أَدْنَى الْقَوْمِ مَجْلِساً

---

(١) مسنتون: مجدبون، أسنت القوم؛ أي أجدبوا الدرء كل ما استترت به.

(٢) يهيضه: يكسره، وهاض العظم: كسره.

(٣) الباقعة: الداهية، وبقع الرجل: إذا رمى بكلام قبيح.

(٤) أبو الحسن هو: علي بن أبي طالب، لكن كيف ناداه أبو بكر بهذه الكنية ولم يولد الحسن بعد، ولم تشتهر هذه الكنية عن علي إلا بعد الهجرة إلى المدينة وولادة الحسن من فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فلا أدري أهي فراسة أبي بكر ومناقبه لا تخفى، على أن علياً لم يبد أمام هذه الكنية إن كان سمعها أول مرة من أبي بكر؛ أي رد فعل مشعر بجدتها، أم عرف بهذه الكنية ولم تشتهر عنه إلا فيما بعد، أم هو إدراج من بعض الرواة، ولم أجد من نبه على هذا الأمر والله أعلم.

(٥) غرر الناس: ساداتهم، وغرة كل شيء: أوله وأكرمه.

(٦) غديرتان: ضفيرتان.

مِنْ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: كَيْفَ الْعَدَدُ فِيكُمْ؟ فَقَالَ مَفْرُوقٌ: إِنَّا لَنزيدُ عَلَى أَلْفٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ أَلْفٌ مِنْ قِلَّةٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَكَيْفَ المَنَعَةُ فِيكُمْ؟ قَالَ مَفْرُوقٌ عَلَيْنَا الْجَهْدُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ جِدٌّ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ؟ قَالَ مَفْرُوقٌ: إِنَّا لأَشَدُّ مَا نَكُونُ غَضَباً حِينَ نَلْقَى، وَإِنَّا لأَشَدُّ مَا نَكُونُ لِقَاءً حِينَ نَغْضَبُ، وَإِنَّا لَنُؤْثِرُ الْجِيَادَ عَلَى الأَوْلادِ، وَالسِّلاحَ عَلَى اللِّقَاحِ، وَالنَّصْرُ مِنْ عِنْدِ الله، يُدِيلُنَا[1] مَرَّةً وَيُدِيلُ عَلَيْنَا أُخْرَى، لَعَلَّكَ أَخُو قُرَيْشٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَقَدْ بَلَغَكُمْ أَنَّهُ رَسُولُ الله ﷺ فَهَا هُوَ ذَا، قَالَ مَفْرُوقٌ: قَدْ بَلَغَنَا أَنَّهُ يَذْكُرُ ذَلِكَ، قَالَ: فَإِلامَ تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ، قَالَ: "أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، وَأَنْ تُؤْوُنِي وَتَنْصُرُونِي، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ تَظَاهَرَتْ[2] عَلَى أَمْرِ الله فَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ". فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو: إِلامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ؟ فَتَلا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، قَالَ مَفْرُوقٌ: وَإِلامَ تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ؟ فَتَلا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، فَقَالَ مَفْرُوقٌ: دَعَوْتَ وَالله يَا أَخَا قُرَيْشٍ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَكَأَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي الْكَلامِ هَانِئَ بْنَ قَبِيصَةَ، فَقَالَ: وَهَذَا هَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ دِينِنَا، فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ، وَإِنِّي أَرَى إِنْ تَرَكْنَا دِينَنَا وَاتَّبَعْنَاكَ عَلَى دِينِكَ لَمَجْلِسٍ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا زَلَّةً فِي الرَّأْيِ، وَقِلَّةَ فِكْرٍ فِي الْعَوَاقِبِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ الْعَجَلَةِ، وَمِنْ وَرَائِنَا قَوْمٌ نَكْرَهُ أَنْ نَعْقِدَ عَلَيْهِمْ عَقْداً، وَلَكِنْ تَرْجِعُ وَنَرْجِعُ وَتَنْظُرُ وَنَنْظُرُ، وَكَأَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي الْكَلامِ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ: وَهَذَا الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ حَرْبِنَا. فَقَالَ الْمُثَنَّى: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ، وَالْجَوَابُ هُوَ جَوَابُ هَانِئِ بْنِ قَبِيصَةَ فِي تَرْكِنَا دِينَنَا، وَاتِّبَاعِنَا

(١) يديلنا: أي يجعل لنا الدولة تارة وعلينا أخرى.

(٢) تظاهرت من المظاهرة: المعاونة.

إِيَّاكَ عَلَىٰ دِينِكَ، وَإِنَّمَا نزلْنَا بَيْنَ صريين،[1] فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا هَاذان الصريان؟" قَالَ: أَنْهَارُ كِسْرَىٰ وَمِيَاهُ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا نزلْنَا عَلَىٰ عَهْدٍ أَخَذَهُ عَلَيْنَا كِسْرَىٰ لا نُحْدِثُ حَدَثاً وَلا نُئْوِي مُحْدِثاً، وَإِنِّي أَرَىٰ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ مِمَّا تَكْرَهُهُ الْمُلُوكُ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نُئْوِيَكَ وَنَنْصُرَكَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَعَلْنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ أَحَاطَهُ الله مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلا قَلِيلا حَتَّىٰ يُوَرِّثَكُمُ الله أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ، أَتُسَبِّحُونَ الله وَتُقَدِّسُونَه؟" فَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَتَلا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ثُمَّ نَهَضَ رَسُولُ الله ﷺ قَابِضاً عَلَىٰ يَدِ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ يَقُولُ: "يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيَّةُ أَخْلاقٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَشْرَفَهَا، بِهَا يَدْفَعُ الله بَأْسَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، وبها يتحاجزون فيما بينهم"... قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ وقد سُرَّ بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنسابهم."[2]

ويمكن استخلاص أهم المداخل الكبرى للكليات السننية في ضوء هذه الرواية فيما يلي:

- إن "استراتيجية" انفتاح المشروع الرسالي على آفاق جديدة خارج مكةلم يكن قراراً نبوياً، وإنما أمراً إلهياً تهيأ له الرسول ﷺ من حيث هو رسول للعالمين تهيئاً سننياً، والشاهد هو قول عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَىٰ قَبَائِلِ الْعَرَبِ."

- إن بناء العمران البشري يقتضي فعل الخروج بما يفيده من معاني المبادرة

---

(١) الصريان: تثنية صرية لعله من الصرا بكسر الصاد وفتحها الماء يطول مكثه واستنقاعه أو من الصراة نهر بالعراق. وفي عيون الأثر: "إنما نزلنا بين صريي اليمامة والسمامة، فقال رسول الله ما هذان الصريان؟" قال محققا الكتاب: "الصريي تثنية صرىٰ، وهو الماء المجتمع... ويروىٰ الصيرين... وصيرتين،" وقد اعتمدت في شرح هذه الألفاظ على معاجم اللغة. انظر:

- ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٩.

(٢)البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٢٢.

والإيجابية والمرونة في التعامل مع مستجدات الواقع، وما يقتضيه من شحذ الفعالية والقدرات الذاتية للتحرك بمشروع الرسالة نحو آفاق جديدة. والشاهد هو قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، حَتَّى دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ."

- إن القيادة الرشيدة الحاملة لمشروع بناء نهضة راشدة وعمران إنساني عالمي هي التي تشرك معها طاقات وكفاءات في عرض رؤيتها، وتوضيح رسالتها تجعل من هذه الكفاءات مؤهلة للمضي في التمكين للرسالة، وكذلك كان الأمر. فالفقه السنني وراثة حضارية تنتقل من جيل لآخر عبر وسائط ومؤسسات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، حتى تظل الأمة محتفظة بيقظتها وفعاليتها وكفاءتها في التدافع مع الأمم والحضارات الأخرى.

- إن معرفة طبيعة البناء الاجتماعي وتشكيلاته الثقافية، وشبكة العلاقات، وأنظمة القرابة، وأنماط التفكير والعمل داخل المجتمع، وما يحيط بالدعوة من فرص وتهديدات، وما يملكه الآخر من قدرات تنافسية مدخل أساسي في التحول بالرسالة إلى أهداف عملية وبرامج واقعية، لذلك فإن معرفة أنساب القوم، وما ينتظم بنية وشبكة العلاقات الاجتماعية، وما يحكم كل نسق ثقافي من القيم والتصورات والمعتقدات، وما يوجههم من قيادات ومرجعيات أساسي ومهم في تحقيق العمران الإسلامي، ولهذا سر الرسول ﷺ بمعرفة أبي بكر بالأنساب، والشاهد هو قول علي بن أبي طالب: "فلقد رأيت رسول الله ﷺ وقد سر بما كان من أبي بكر ومعرفته بأنسابهم."

- إن منظومة القيم والأخلاق هي العاصمة للعمران والاجتماع من الزوال والضياع والموت الحضاري لقوله ﷺ لأبي بكر تعليقاً على الحوار الذي جرى بينه وبين مفروق وهانئ والمثنى: "أية أخلاق في الجاهلية" وهذا يدل على أن النبي ﷺ بنى على ما كان موجوداً في واقعه، واعترف بأخلاق القوم معتبراً إياها من الشرف، وأنه كان على الدوام يبحث عن أرضية مشتركة مع الآخر المخالف تكون مدخلاً

للإصلاح والبناء. وهذا وعي سنني نبوي على قيادات الأمة الالتزام به في تعاملها مع الآخر بناء على سنن الاختلاف والتعارف والاعتراف.

- عرض برنامج متكامل: قدم رسول الله ﷺ برنامجاً متكاملاً يبدأ بالإيمان بالفكرة وقبول الرؤية التوحيدية، واستيعاب مقاصد الرسالة النبوية، وما تقوم عليه من منظومة القيم ومحاسن الأعمال وكليات التشريع، وما يترتب عن ذلك من القيام بواجب النصرة والمنعة. وواضح أن النبي ﷺ كان يتحرك في ضوء معرفة دقيقة بالخريطة السياسية للمنطقة. فلم تكن المرحلة المكية مرحلة البناء العقدي كما فهم الأمر واختزل في بناء العقيدة، كيف يفهم هذا الأمر والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة بدأ في تأسيس المجتمع والدولة لما شاهد وجود الكتلة البشرية التاريخية القادرة على حمل المشروع الاجتماعي والسياسي في أبعاده العمرانية الإنسانية العالمية، وإلا كان أخضع أهل المدينة لبناء عقدي[1] إذا صح الادعاء السابق.

كما أن القرآن المكي لم يكن يفصل بين معطيات العقيدة ومعطيات الواقع

(١) لا ننكر أن النبي ﷺ استحضر البناء العقدي في بناء الدولة بالمدينة، فقد كان من حكمته وبصيرته التخطيطية "الاستراتيجية" أن أرسل مصعب بن عمير مع أهل العقبة يعلمهم ويؤمهم كما أخرجه ابن إسحاق، وغيره من أهل المغازي، وكذلك أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم ذكر هذه الروايات وتخريجها. ونتساءل هنا: ألم يكن تعليم القرآن وإقراؤه للناس غير منفصل عن بناء المجتمع والدولة بالمدينة؟ هل يعني تعليم القرآن وإقراؤه الاقتصار فقط على الجانب العقدي منه على ما في ذلك من تعضية وتجزيء للخطاب القرآني والوحي يتنزل والرسول حاضر بينهم، ولا يجوز تأخير البيان عن وقته؟ ثم كم استغرقت مهمة مصعب بن عمير حتى مجيء الرسول ﷺ وهجرته؟ إن الأمر كان يتعلق بالإيمان بالرسالة والإيواء والنصرة والمنعة. وما ذكرناه من شواهد في المتن هو اعتراض على بعض القراءات الإسقاطية والتجزيئية التي أرادت أن تستنسخ أحداث السيرة وتدعي ضرورة إعطاء البناء العقدي للفرد والأمة حيزاً زمنياً كبيراً دون الدخول في معتركات التدافع والتداول والتجديد التي تهدف بحق تحقيق مقتضيات الاستخلاف والعمران وفق المنظور القرآني التوحيدي الكوني. وقد ضيعت هذه القراءات على الأمة فرصاً في النهوض والإصلاح، وأهدرت جهوداً وطاقات وذلك بسبب عدم التمييز بين مقامات الاقتداء والتأسي، وكذا عدم إدراك رؤية الوحي ومنهج النبوة في البناء والإصلاح.

وملابساته ومنظومة القيم المتعلقة بالفرد أو الجماعة... وقد تنبه الشاطبي إلى حقيقة كبرى تتعلق بالقرآن المكي، وذلك في قوله: "اعلم أن القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً، والذي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة، ثم تبعها أشياء بالمدينة، كملت بها تلك القواعد التي وضع أصلها بمكة... ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتسعت خطة الإسلام كملت هناك الأصول الكلية على تدريج، كإصلاح ذات البين، والوفاء بالعقود، وتحريم المسكرات، وتحديد الحدود التي تحفظ الأمور الضرورية وما يكملها ويحسنها، ورفع الحرج بالتخفيفات والرخص، وما أشبه ذلك، كله تكميل للأصول الكلية."[1]

من هنا عدّ أحمد الريسوني القرآن المكي بالإضافة إلى أنه قرآن دعوة فهو "أيضاً قرآن تشريعي، وكلياته -وهي الأكثر- هي كليات تشريعية كذلك، مثلما أن القرآن المدني هو أيضاً قرآن دعوة"[2] وينطبق هذا النظر الكلي على السيرة النبوية من حيث هي تنزيل عملي للوحي ومدافعة يومية وإصلاح وتجديد شامل لمناحي الحياة والعمران البشري.

- أشار النبي ﷺ أن الذي يعرضه عليهم، إنما هو وراثة حضارية، وكأنه يومئ إلى قول هَانِئ بْن قَبِيصَةَ: "قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ، وَإِنِّي أَرَى إِنْ تَرَكْنَا دِينَنَا وَاتَّبَعْنَاكَ عَلَى دِينِكَ لَجَلِسٍ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا زَلَّةً فِي الرَّأْيِ، وَقِلَّةَ فِكْرٍ فِي الْعَوَاقِبِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ الْعَجَلَةِ، وَمِنْ وَرَائِنَا قَوْمٌ نَكْرَهُ أَنْ نَعْقِدَ عَلَيْهِمْ عَقْداً، وَلَكِنْ تَرْجِعُ وَنَرْجِعُ وَتَنْظُرُ وَنَنْظُرُ" وهي وراثة حضارية لها لوازمها وشروطها تتجلى في سلوك السنن وعدم مصادمتها؛ ومنها الإحاطة بالدين كله، فليس الدين مجرد اعتقاد وتوحيد بالمعنى الضيق الذي اختزلته أفهام البعض حتى جعلت المرحلة المكية مرحلة بناء العقيدة فقط، ولم تدرك

(١) الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٢.

(٢) الريسوني، **الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٨.

حركة الوحي في التنزيل، وبنيته الكلية الموضوعية غير القابلة للتجزي والتعضية، والشاهد هنا قول رَسُولُ الله ﷺ: "مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ أَحَاطَهُ الله مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلا قَلِيلا حَتَّى يُوَرِّثَكُمُ الله أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ، أَتُسَبِّحُونَ الله وَتُقَدِّسُونَهُ؟"

ويعلق محمد الصادق عرجون على قول رسول الله ﷺ فيقول: "وقد حلق رسول الله ﷺ في آفاق الغيب، وقرأ في كتاب الكون وسنن الله في حياة المجتمع الإنساني أن قوى الشر لا بقاء لها، وقد أراد ﷺ أن يرفع هؤلاء القوم الذين أخلدوا إلى الأرض لا يريمونها على أجنحة الأمل الفسيح، ليعدهم نفسياً ليوم يأتيهم وهم يخوضون معارك الشرف والكرامة مع هؤلاء الأكاسرة باسم الإسلام والعدل، وأنهم سيكسرونهم ويورثهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشهم نساءهم"[1] وكذلك كان؛ حيث حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم مشاركة المثنى بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فتح فارس وتسلم قيادة العراق بعد خالد بن الوليد بأمر من أبي بكر.

فهذا الذي كان يهاب فارس قبل إسلامه كيف علمه الإسلام سنن النصر والتمكين فأمكن منها، وأمكنه الله منهم، حيث سار المثنى من الحيرة إلى بابل، ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عدوة الصَّراة الأولى اقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل؛ ليفرق خيول المسلمين، فحمل عليه أمير المسلمين المثنى بن حارثة فقتله، وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلا هزيمة الفرس فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم مالاً عظيماً، وفرّت الفرس حتى إنتهوا إلى المدائن في شر حالة ووجدوا الملك قد مات.

وعاد الاضطراب إلى بلاد فارس، وطارد المثنى أعداء الله حتى بلغ أبواب المدائن.

---

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٩٠.

- أن الرسالة الخاتمة رسالة شهود وتبشير وإنذار؛ شهود علم وعدل وتبليغ وحضور يؤسس للتبشير بالنصر والخيرية والعالمية، وينذر المخالفين لسنن الله والمعترضين عليها بأن يصيبهم ما أصاب الأقوام والحضارات السابقة.

ثالثاً: الكليات السننية للعمران البشري في المنهج النبوي

شكلت "الحركة الرسالية النبوية" الخاتمة قدوة تاريخية نموذجية قصوى، لاستلهام قواعد وكليات الفقه السنني في أبعاده المنهجية، والمعرفية، والعقدية، والقيمية، والسلوكية، والاجتماعية، والجمالية، والرمزية، ولتنمية الفاعليات القادرة على المدافعة الاجتماعية، وخوض معتركات المداولة والابتلاء، والتجديد في اتجاه الترقي في مقامات العبودية، ومنازل الخيرية والوسطية والعالمية. ولعل الناظر في سيرته ﷺ يدرك مدى حضور الرؤية السننية الكلية المقاصدية التكاملية في حركته نحو بناء العمران البشري التي تنتظم داخلها أبعاد كبرى شكلت الشرط الأول من شروط استكمال الفقه السنني العمراني. والكليات السننية للعمران البشري في المنهج النبوي مثل سائر كليات الدين وأصول الشريعة جارية على حكم العموم والثبات والاطراد، وأنها حاكمة على الجزئيات لا محكوم عليها،[1] فالكليات السننية لا تنخرم بجزئية من جزئيات وقائع السيرة النبوية، وإنما يكون ذلك الجزئي محكوماً عليه بالكلي، وإن كان المقرر هو اعتبار خصوص الجزئيات مع اعتبار كلياتها، ثم إن الكليات السننية في الفقه النبوي لا تثبت إلا من استقراء الجزئيات كلها أو أكثرها، بل لا تعلم الكليات قبل العلم بالجزئيات، والإعراض عن الجزئي هو إعراض عن الكلي، وأنه من جملة مراعاة الكليات مراعاة الجزئيات.[2] فهذا وأمثاله مما تجدر الإشارة إليه قبل الحديث عما بلغه

(١) ذكر الشاطبي هذه الأوصاف عند حديثه عن ما هو من صلب العلم. انظر:
- الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج١، ص٥٢-٥٣.

(٢) استفدت هنا مما ذكره الشاطبي. انظر:
- المرجع السابق، ج٢، ص٦-٨.

الجهد واستقر عليه النظر وظفرت به النفس من الكليات السننية. وهو نظر يعتوره النقص وجهد يحتاج إلى بذل مزيد وسع وطول بحث ودقة فكر وتأمل، وحسبي أني ذاكر بعض تلك الكليات عسى أن لا تقصر بنا الهمة حتى يفتح الله لنا ولغيرنا من فقه الكليات السننية ما ينفع الله تعالى به الأمة اليوم في تدافعاتها المتتالية:

١- الكلية الأولى:

كل سنة من السنن تتعارض مع مقاصد الدين وكلياته فهي من الدين عارية. فالمصلحة كل المصلحة في عدم مصادمة السنن لحقائق الدين ومقاصده، وحقيقة السنن، إنما تكمن في جلب المصالح ودرء المفاسد، وما تفرع عن ذلك من قواعد أصولية هي من صميم النظر السنني الكلي. والناظر في السيرة النبوية يلحظ تعلق السنن التي سلكها النبي ﷺ في إقامة أسس العمران البشري بمقاصد الدين وكليات الشريعة سواء الكليات العقدية أم المقاصدية أم الخلقية أم التشريعية.

٢- الكلية الثانية:

كلية الفعالية والأصالة: فالذي يتأمل السيرة النبوية يجد أن النبي ﷺ كان يؤسس للوعي والممارسة الجامعين بين أصالة السنن التشريعية وفعالية سنن الاجتماع والعمران، لتحقيق إنجازية بدرجات عالية مع المحافظة على تلك المكتسبات والمنجزات الواقعية. وهو في ذلك موجه بالوحي، وبالخبرة الواقعية، وبخصائص شخصيته الرسالية. ولذلك إذا كان كسر الأوثان وتحطيم الأصنام ومحاربة الشرك في صوره المادية المجسدة سنة تشريعية، فإن الرسول ﷺ لم يشغل نفسه بإزالتها وتحطيمها، ولم يأمر أصحابه بذلك وعدّ ذلك مناقضاً ومنافياً لفعالية سنن الاجتماع والعمران حيث لن تتحقق تلك السنة التشريعية في أصالتها إلا حينما تعاد صياغة الرؤية العقدية والمنهجية للفرد والمجتمع، فيحصل تحطيم الأصنام فكرياً ونفسياً، لتتحطم مادياً وواقعياً وفق سنن الله في الاجتماع والعمران، ووقتها تتحقق أيضاً فعالية السنن التشريعية ويسلم للدين بصلاحه وإصلاحه وإلا أسأنا إلى الدين من حيث نريد الإصلاح.

وكثير من الدعاة للأسف لم يفقهوا بعد هذه المسألة المعرفية والمنهجية بسبب عدم تمييزهم بين أصالة السنن التشريعية وتهييء الظروف والشروط والإمكانات، لتصير فعالة على أرض الواقع، ولا يتحقق ذلك إلا بفهم سنن الله في تنزيل الأحكام، وتغيير الأنفس وإقامة العمران. ونورد هنا واقعة أخرى دالة على هذه الكلية السننية، "فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ما يرد عليه. قالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. قالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال:... أما والله ما رأينا سخطة أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما ينتظر إلى مثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة؛ فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشراً.

"وفي رواية ابن إسحاق: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد شرفاً؛ سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً؛ ملكناك علينا". فقال رسول الله ﷺ: "أفرغت؟" قال: نعم. قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ... فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت: ١-١٣]. فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: "لا"[1] فالنبي ﷺ لم تستهوه عروض مشركي قريش

(١) رواه ابن إسحاق بسند حسن، إلا أنه مرسل، لكنه موصول من طريق آخر. وأخرجه ابن أبي شيبة، والحاكم، وأبو نعيم. قال أكرم ضياء العمري: "لم يثبت من طريق صحيحة أن عتبة بن ربيعة أو الوليد بن المغيرة عرضاً على رسول الله ﷺ عروضاً من الرئاسة والمال والزواج والتطبب، وإن اشتهر هذا بين الناس." لكنه قال بعد ذلك: "ولا يعني ذلك نفي وقوع الأمر تاريخياً، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها." وفي السند الأجلح الكندي وثقه ابن معين والعجلي وضعفه النسائي وأحمد. قال ابن حجر: "صدوق شيعي." وحسن الشيخ الألباني =

ومساوماتهم المتكررة والخيارات المتعددة التي منحوها لرسول الله ﷺ، لمخالفتها لفعالية سنن العمران وحركة الاجتماع البشري البانية لحضارة إنسانية عالمية. كما أنه ﷺ لم ير في ذلك فرصة تاريخية لتولي قيادة المجتمع ومؤسساته العليا لبسط تأثيره وفرض تعاليم رسالته والانقضاض على معسكر الشرك والانقلاب عليه سياسياً واقتصادياً، على ما في ذلك من تجنيب أصحابه متاعب الإيمان بالرسالة وتحديات انتشارها. إن سنن الله التشريعية في إقامة الدعوة وإصلاح المجتمع والعودة به إلى رحاب التوحيد تتناغم مع سننه تعالى في إقامة العمران وبناء الدولة والأمة الإسلامية. وثمة نماذج وتطبيقات متعددة لهذه الكلية السننية في السيرة النبوية غير ما ذكرنا، ونورد هنا نموذجاً تطبيقياً آخر، "فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام وقام المفطرون، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر."[1]

= إسناد الرواية الموصولة عند عبد بن حميد وأبي يعلى من طريق أخرى من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٣-٢٩٥.

- أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي. **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ، ج٧، ص٣٣٠.

- النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٣، ٢٥٤.

- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد. **دلائل النبوة**، تحقيق: محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس، بيروت: دار النفائس، ط٢، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٢٣٠.

- العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١٦٢.

- ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، مرجع سابق، ص١٢٠.

- الغزالي، محمد. **فقه السيرة**، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، القاهرة: دار الشروق، ط٣، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٨٤.

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الصيام، باب: أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل، ج٢، ص٧٨٨، حديث رقم: (٤٥٤٧).

والمتأمل يرى كيف وازن ﷺ بين أصالة السنن التشريعية، وفعالية سنن الاجتماع والعمران فدعا إلى الإفطار. وليس ثمة أولوية لفضيلة الفعالية على فضيلة الأصالة كما فهم ذلك مالك بن نبي.[1]

٣- الكلية الثالثة:

اعتبار المآل شرط في صحة النظر السنني: من طبيعة السنن استشراف المآلات واعتبار ما تفضي إليه القرارات من مناطات ينبغي مراعاتها أثناء تداولها وتنزيلها. وقد كانت هذه الكلية الناظمة للجهد النبوي في بناء عمران الأمة حاضرة باستمرار تعليماً لأمته من بعده كيف تدبر أحوالها بناء على ما تؤول إليه مآلاتها وما تقتضيه السنن، من بين ذلك ما روته عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَت: "سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْجَدْرِ أَمِنَ الْبَيْتِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَمَا لَهُمْ لَمْ يُدْخِلُوهُ فِي الْبَيْتِ؟ قَالَ: "إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ، قُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مُرْتَفِعاً؟ قَالَ: فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ لِيُدْخِلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ."[2] ويمكن القول إنّ هذه "القاعدة مستفادة، ليس من دليل واحد، وإنما من عدد كبير من الأدلة، تثبت وتؤكد باجتماعها اعتبار مآلات الأفعال في الفتوى والاجتهاد والتشريع والتنزيل، فما كانت نتيجته ونهايته الفساد والشر يمنع الإقدام عليه، ولو كان مشروعاً في الأصل، وما ألجأ إلى مايحتاج إليه الناس من الخير والصلاح يشرع الاهتمام والعمل به، ولولم يكن مشروعا. وإن المسلمين إذا استناروا بهذه القاعدة، وانطلقوا منها، فاستشرفوا نتيجة أعمالهم، وحكموا عليها

---

(١) ابن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص١١٢.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. انظر:

- البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب:الحج، باب: فضل مكة وبنيانها، ج٢، ص٥٧٣، حديث رقم: (١٥٠٧).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الحج، باب: جدر الكعبة وبابها، ج٢، ص٩٦٨، حديث رقم: (١٣٣٣).

بالنظر إلى ما تؤدي إليه في المستقبل"[1] تحققوا بجزء عظيم من ذلك الفقه الكلي الجامع للسنن الإلهية، فاحتاطوا لأنفسهم من الوقوع في علل الأمم السابقة.

وفي ذلك التشبيه النبوي الرائع للاجتماع البشري والعمران الإنساني بالسفينة دلالات حضارية عميقة، وأبعاد قيمية واجتماعية تؤول كلها إلى إعمال قاعدة اعتبار المآل شرطاً في صحة النظر السنني. ففي الحديث: "عن النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَاب بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً"[2] كما أنه ﷺ لم يعمد إلى قتل رأس المنافقين وتركه حتى عاداه قومه، ففي حديث عبد الله بن أبي "كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته" فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري."[3]

٤- الكلية الرابعة:

كلية الاستباقية الوقائية[4] والاستشرافية التي تنشأ عن قاعدة اعتبار المآل من حيث هي كلية قائمة على متابعة الواقع، ورصد تفاعلاته، وتبصر آفاقه المستقبلية.

---

(١) الإدريسي، عبد الواحد. **فقه الفتن: دراسة في ضوء نصوص الوحي والمعطيات التأريخية لسلف الأمة**، الرياض: دار المنهاج، ط١، ١٤٢٨هـ، ص٦٣٠.

(٢) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة؟ والاستهام فيه، ج٢، ص٨٢٢، حديث رقم: (٢٣٦١). وفي كتاب: الشهادات، باب: القرعة في المشكلات، ج٢، ص٩٥٤، حديث رقم: (٢٥٤٠). بلفظ: "مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها...".

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٤٣٩) من الكتاب.

(٤) أشار الطيب برغوث إلى هذه الكلية بعنوان: كلية الاستباقية الوقائية المتكاملة. انظر:

- برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق، ص٧٦.

وهي كلية سننية تندرج ضمن جهود النبي ﷺ في حماية المشروع الرسالي، وتوفير الضمانات الوقائية الكافية، تحسباً لاحتمالات ممكنة قد تأتي سلباً على مكتسبات سابقة. من ذلك "عدم إتاحته الفرصة للضغوطات والمغريات الآنية لتؤثر سلباً على موقفه وقراره الاجتماعي أو السياسي، الذي كان موزوناً ومحكوماً دوماً بالمصالح الكلية العليا للدعوة والمجتمع والدولة."[1] وقد أورد ابن إسحاق في سيرته حدث عرض رسول الله ﷺ دعوته على قبيلة بني عامر، فأملوا عليه شرطاً تمثل في أن يكون لهم الأمر من بعد رسول الله ﷺ إذا هم نصروه وتحقق لهم مع رسول الله النصر والغلبة، فرفض ﷺ هذه المساومة وعدّها مناقضة لروح رسالته وللمآلات التي يمكن أن تفضي إليها، "فعن ابن إسحاق قال: وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم -يقال له: بيحرة بن فراس، قال ابن هشام: فراس بن عبد الله بن سلمة (الخير) بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة-: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: "الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء" قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه. فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا قال: فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف، هل لذناباها من مطلب،[2] والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق،

(١) المرجع سابق، ص٧٧.

(٢) قال السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقوله لرسول الله ﷺ أفنهدف نحورنا، للعرب دونك. نهدف أي نجعلها هدفاً لسهامهم والهدف الغرض. وذكر قول الشيخ هل لها من تلاف أي تدارك، وهو تفاعل من تلافيتهم.

فأين رأيكم كان عنكم"[1] وقد تحسر هذا الشيخ على سفاهة الرأي وذهاب العقل وغياب البصيرة لدى قومه فلم يروا الحق حيث كان قريباً منهم.

ويلاحظ "أن بيحرة بن فراس كان يريد أن يحتوي محمداً ﷺ ويتخذ من (هاشميته) أو من دينه مرتكزاً فلسفياً يبرر به بسط نفوذ قبيلته السياسي على بطون العرب، ويسوغ به (ابتلاعها) كما جاء في عبارته، ولعله في ذلك كان يظن أن محمداً بعد أن خذلته قريش وثقيف جاء لبني عامر بحثاً عن حليف عسكري ينقض به عليهما ويقتسم السلطة والسيادة مع بني عامر"[2] فلم يكن ﷺ يقبل على معاهدة أو تحالف سياسي لإحداث تغيير اجتماعي إلا إذا انسجم ذلك التحالف مع مبادئ الرسالة، "فالسياسة المنفكة عن أطر القيم هي مجرد صفقة ذات كسب عرضي... والعسكرية المتجانفة عن إطار القيم هي مجرد امتداد للإرث الجاهلي السائر في اتجاه الاحتراب القبلي والمغامرات الطائشة، وكل ذلك لا يصلح أن يكون قاعدة لبناء أمة أو إنشاء حضارة."[3]

ومن هذه الكلية الاستباقية تطويق بوادر الأزمة وحماية الاجتماع الإسلامي من تداعياتها، "فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: "ما بال دعوى الجاهلية؟" قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: "دعوها فإنها منتنة"

وهل لذناباها من مطلب؛ مثل ضرب لما فاته منها، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ بذناباه. وقال: ما تقولها إسماعيلي قط؛ أي ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل." انظر:

- السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٣٧.

(١) رواه ابن إسحاق، وقد صرح فيه بالتحديث عن الزهري إلا أنه مرسل. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٥.

- البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٤١٤.

(٢) التيجاني، **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، مرجع سابق، ص١٨٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٣.

فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: "دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه."[1]

٥- الكلية الخامسة:

أن السنن تتكامل ولا تتعارض، فهي من عند الله تعالى. ومتى حصل تعارض فمرده إلى توهم أو سوء فهم، والأولى تتبع الوقائع والأحداث في السيرة استقراء واستقصاء، ونظراً واستنباطاً لمعرفة فقه المحل أو تحقيق مناط الفعل، فيجمع بين سنن ظن المتوهم أنها متعارضة لعدم إدراكه مناطات تحققها وتنزلها زماناً ومكاناً، وحالاً ومآلاً، وأفراداً وجماعات. من ذلك التكامل بين سنن الإعداد وسنن التأييد وفهم سنة الأخذ بالأسباب، وأن هذا الربط بين الأسباب والمسببات تحكمه مشيئة الله تعالى "وقد كانت سياسة النبي ﷺ النابعة من منهج رسالته في تربية مجتمعه المسلم تربية تنقله من تراث الرواسب الموروثة عدم المباعدة بين هذا المجتمع لقيادة الحياة وسنن الله الكونية العامة التي تحكم سير الحياة ونظامها العام، وتربط الأحداث والوقائع بأسبابها المألوفة في هذه الحياة، ربطاً يرتب عليها مسبباتها عند وجودها ترتباً واقعياً، مالم تكن هناك عوارض خفية تعوق هذا الترتب الواقعي"[2] ويفهم في هذا الإطار عدم رؤية المشركين له ولصاحبه أبي بكر وهما في الغار،[3] وتنزل الملائكة يوم بدر،[1] والرمية التي رمى بها

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (؟؟؟) من هذا الكتاب.

(٢) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج٣، ص٣٧٨.

(٣) لمزيد من التفاصيل. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم منهم أبو بكر، ج٣، ص١٣٣٦، حديث رقم: (٣٤٥٢). وفي كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ ج٣، ص١٤١٧، حديث رقم: (٣٦٩٢).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي بكر الصديق، ج٤، ص١٨٥٤، حديث رقم: (٢٣٨١).

الرسول ﷺ المشركين يوم بدر بكف من تراب وحصى فملأت أعينهم وأفواههم.[٢]

٦- الكلية السادسة:

كلية تكاملية منظومات السنن: سنن العمران والتاريخ، وسنن الهداية، وسنن التأييد والإمداد. فالرسول ﷺ كان يتحرك وفق سنن الله في الاستخلاف والتسخير، فيشحذ الفاعليات، ويستجمع الأسباب، ويضع الخطط و"الاستراتيجيات"، ويدبر المهام والأزمات، ويستثمر الفرص والمعطيات، ويستشرف إمكانات المستقبل، لكنه ﷺ كان في حركته الاستخلافية والتسخيرية مراعياً لشرطين تتحقق بهما موافقة سنن الهداية:

أ- الشرط الأول: صدق توجهه إلى الله تعالى بإخلاص النية، وتصحيح القصد، وتجريد السلوك والحركة والفعل من كل شائبة نفسية ودنيوية.

ب- الشرط الثاني: متابعته الشرع، وتعلقه بمصدرية الوحي ومرجعية النص الشرعي الإلهي، مع اجتهاده ﷺ، وكان لا يقر على خطأ. ثم كان ﷺ لا يدع أبدا التعلق بسنن الإمداد ولطائف التأييد الرباني وواردات التوفيق الإلهي."إن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس خطيبا، قال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا،

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وابن إسحاق بسند حسن. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة يوم بدر، ج٤، ص١٤٦٧، حديث رقم: (٣٧٧١-٣٧٧٣).
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة، ج٣، ص١٣٨٣، حديث رقم: (١٧٦٣).
- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٣.

(٢) ذكره ابن إسحاق، والهيثمي، وقال: "رواه الطبراني وسنده حسن،"والبيهقي. انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٣.
- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ج٦، ص٨٤.
- البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة**، مرجع سابق، ج٣، ص٧٩.

واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال: "اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم."[1] قال ابن حجر: "فعند أحمد من وجه آخر عن موسى بن عقبة بهذا الإسناد "أنه كان ﷺ يحب أن ينهض إلى عدوه عند زوال الشمس." ولسعيد بن منصور من وجه آخر عن ابن أبي أوفى "كان رسول الله ﷺ يمهل إذا زالت الشمس، ثم ينهض إلى عدوه" وللمصنف في الجزية من حديث النعمان بن مقرن "كان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تهب الأرواح وتحضر الصلوات" وأخرجه أحمد وأبو داود، والترمذي وابن حبان من وجه آخر وصححاه، وفي روايتهم "حتى تزول الشمس، وتهب الأرواح وينزل النصر."

فيظهر أن فائدة التأخير لكون أوقات الصلاة مظنة إجابة الدعاء، وهبوب الريح قد وقع النصر به في الأحزاب فصار مظنة لذلك والله أعلم. وقد أخرج الترمذي حديث النعمان بن مقرن من وجه آخر عنه لكن فيه انقطاع، ولفظه يوافق ما قلته قال: "غزوت مع النبي ﷺ فكان إذا طلع الفجر أمسك حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قاتل، فإذا انتصف النهار أمسك حتى تزول الشمس، فإذا زالت الشمس قاتل، فإذا دخل وقت العصر أمسك حتى يصليها ثم يقاتل، وكان يقال: عند ذلك تهيج رياح النصر ويدعو المؤمنون لجيوشهم في صلاتهم"[2] وقال أيضاً: "أشار بهذا الدعاء (أي اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب) إلى وجوه النصر عليهم، فبالكتاب إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وبمجري السحاب إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب حيث يحرك الريح بمشيئة الله تعالى، وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الريح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر، فأشار بحركته إلى إعانة

---

(١) أخرجه البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الجهاد والسير، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، ج٣، ص١٠٨٢، حديث رقم: (٢٨٠٤ و٢٦٦٣). حديث رقم٢٩٦٥-٢٩٦٦، وباب: لا تمنوا لقاء العدو، ج٣، ص١٣٦٢، حديث رقم: (١٧٤١-١٧٤٢).

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص١٢١.

المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم، وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين. وأشار بهازم الأحزاب إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد التوكل، واعتقاد أن الله هو المنفرد بالفعل. وفيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث، فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظتهما فأبقهما."[1]

٧- الكلية السابعة:

كلية وجوب منازعة السنن ومدافعة بعضها ببعض، على شاكلة منازعة الأقدار شرِّها بخيرها وأحبِّها إلى الله تعالى. فإذا كانت السنن لا تتعارض كما دلت عليه وقائع السيرة فهي تتكامل. وإذا كانت السنن تتكامل فيما بينها ولا تتعارض فهذا يفضي إلى نتيجة ثالثة وهي: تحقق العمران والاجتماع الإسلامي بمدافعة السنن بعضها ببعض. ومدافعة السنن كلية عظيمة من كليات الفقه السنني النبوي دالة على قراءته ﷺ الجيدة للحدث واللحظة التاريخية التي تعرفها معركة التدافع العمراني بين الحق والباطل، فلم يكن ليغفل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الاستثمار التدافعي بين السنن لتحقيق وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين.

٨- الكلية الثامنة:

كلية الارتباط والتناغم بين السنن التشريعية والآيات الآفاقية والنفسية وسنن التاريخ والاجتماع والعمران البشري، وأن الإخلال بواحدة منها أو مخالفتها ينتج عنه بالضرورة مصادمة مع السنن الأخرى، من ذلك قول النبي ﷺ: "كيف أنتم إذا وقعت

---

(١) المرجع السابق، ج٦، ص١٥٧.

فيكم خمس؟ وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوها: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية؛ إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة؛ إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان؛ إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله؛ إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم."[1] فالمجاهرة بالفواحش مخالفة لسنة تشريعية ترتبت عنها آيات نفسية تتصادم مع طبيعة العمران والاجتماع البشري (الطاعون والأوجاع)، كما أن تعطيل الحكم والعمل بالكتاب والسنة مخالفة لسنة تشريعية نتج عنه وقوع البأس الشديد بين مكونات الأمة، فتضعف وتنكسر، ويضيع اجتماعها ويندثر عمرانها.

٩- الكلية التاسعة:

ينجم عن الكلية السابقة كلية أخرى هي المبدئية المبصرة والواقعية المنضبطة؛[2] والمقصود بهذه الكلية السننية أن العمران البشري الإسلامي كما تجسدت معالمه الكبرى في المنهج النبوي يقوم على تكاملية وتوازن المبدأ والواقع، فالرؤية الكلية السننية تقوم أساساً على الإبصار والانضباط؛ إبصار للمبادئ والأصول التي يقوم عليها العمران الإسلامي واعتصام بها، وانضباط لمعطيات الواقع وإمكاناته وفرصه

---

(١) قال الألباني: صحيح لغيره. انظر:

- الألباني، محمد ناصر الدين. **صحيح الترغيب والترهيب**، الرياض: مكتبة المعارف، ط٥، (د. ت.)، ج٢، ص٢٥٦، حديث رقم: (٢١٨٧).

(٢) أشار الطيب برغوث إلى هذه الكلية بعنوان: كلية المبدئية الحركية المبصرة، وكلية الواقعية الحركية المنضبطة، فجمعت بينهما بما يدل على تكاملية المبدئي والواقعي في الفعل النبوي، مشيراً إلى وقائع وحوادث من السيرة النبوية، مستنبطاً منها ما يفيد الحديث عن الكليات السننية في الفقه العمراني النبوي. انظر:

- برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق، ص٥٦و٦٣.

وخياراته. ويظهر ذلك التكامل والتوازن في أن من علامات إبصار المبدئية مدى اعتبارها لملابسات الواقع ومستجداته، وأن من أمارات الانضباط الواقعي مدى التزام هذه الواقعية بمقتضيات المبدئية المبصرة.

فسنن العمران أول ما تقوم عليه هو المبدئية المبصرة، ولذلك لما جاءت قريش أبا طالب وقالت له: "إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا، فقال: ياعقيل، انطلق فأتني بمحمد، فاستخرجته من كنس، أوقال خنس، يقول: بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدة الحر. فلما أتاهم قال: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فحلّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: "ترون هذه الشمس؟" قالوا: نعم، قال: "فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة" وفي رواية: "والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار" فقال أبو طالب: "والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا"[1] وفي رواية أخرى "فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ أَيِ ابن أخي ما بال قومك يشكونك ويزعمون أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ وَتَقُولُ وَتَقُولُ؟ قَالَ وَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ وَتَكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: يَا عَمِّ إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ. ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كَلِمَةً وَاحِدَةً نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْراً، فَقَالُوا: وَمَا هِيَ؟ وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَأَيُّ كَلِمَةٍ هِيَ يا ابن أخي؟ قال ﷺ: "لَا إِلَهَ إِلَّا الله" فَقَامُوا فَزِعِينَ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ

---

(١) رواه البخاري في تاريخه، والهيثمي في مجمعه، وقال: "رواه أبو يعلى ... ورجال أبي يعلى رجال الصحيح"، والحاكم في مسنده، وحسّن الألباني إسناده. انظر:

- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي. **التاريخ الكبير**، تحقيق: السيد هاشم الندوي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٧، ص٥٠.

- الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ج٦، ص١٥.

-النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٧٧.

- الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، مرجع سابق، حديث رقم: (٩٢).

ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥] قَالَ وَنزلَتْ مِنْ هَذَا الموضِعِ إِلَىٰ قوله ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص: ٨]"[(١)] وحديث الوليد بن المغيرة معه وقد تقدم، "ولكن المبدئية الشرعية والأخلاقية الصارمة، التي كانت تحكم منهج النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في إدارة الابتلاءات والتدافعات الاجتماعية من جهة، وإدارة العملية التربوية في المجتمع من جهة أخرى، جعلته يتجاوز هذه الاعتبارات والأولويات المصلحية الظاهرة أو الآنية، وينحاز بلا تردد للمنطق المبدئي، ليطابق موقفه مع المبدأ ابتداء، وليعطي للمجتمع إشارات تربوية واضحة، بخصوص الأخلاقية العالية التي يجب أن تحكم علاقاته بالآخرين، وليرسل إشارات دعوية أخرى قوية كذلك، للقوى المضادة أو المحايدة، بخصوص المنطق الذي يحكم هذه الدعوة، والآفاق الاجتماعية والسياسية والحضارية التي تتحرك باتجاهه"[(٢)] ولعل تجارب الأمم والحضارات والخبرات التاريخية الطويلة لأصحاب مشاريع التغيير والإصلاح تشهد باطراد على خطورة التهاون في كلية المبدئية المبصرة، وأثره في انهيار العمران وانكساره وخروجه عن أهدافه ومقاصده، وهو ما ينطبق أيضاً على تجاهل الواقعية المنضبطة حينما.

فالنبي ﷺ رغم كونه مؤيداً بالوحي، معصوماً بالعناية الربانية، منصوراً بتأييد الله وإمداده، فإنه لم يستغن عن مراعاة أحوال الواقع وملابساته، والنظر في منطق الأحداث وارتباط النتائج بالأسباب، ليأخذ العقل المسلم نحو آفاق العمران الإسلامي الرحبة. ومثل ذلك: أمره ﷺ أصحابه الهجرة إلى الحبشة[(٣)] استفادة من

---

(١) رواه التِّرْمِذي في جامعه، وَقَالَ: حَسَنٌ صحيح. وأَحْمَد في مسنده والحاكم في مستدركه وصححه. انظر:

- الترمذي، **الجامع الكبير «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، كتاب: التفسير، باب: ومن سورة ص، ج٥، ص٢١٩، حديث رقم: (٣٢٣٢).

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٥٨، حديث رقم: (٢٠٠٨).

-النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٣٢.

(٢) برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق، ص٦١.

(٣) تقدم تخريجه صفحة (٤٣٠) من هذا الكتاب.

أجواء الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية التي عرفت عن النظام السياسي الذي كان يقوده النجاشي، واستثماره ﷺ الفعال والواقعي لأعراف المجتمع لتكثيف درجة الإنجاز العمراني وتأمين مجال الدعوة حيث دخل في جوار المطعم بن عدي بعد أن بعث إليه رجلاً من خزاعة يعرض عليه أمر الجوار وذلك بعد رجوعه من الطائف.[1] والمطعم بن عدي من بني نوفل "فإذا بعث الرسول ﷺ رجلاً من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل، فإن هذا الفعل إشارة ظاهرة إلى تلك الوقائع التاريخية، التي ذكرناها، كما فيها تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل وعبد شمس، ليفهم من ذلك أن الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكة، وأنه قد يفعل ما فعله جده عبد المطلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرسول ﷺ لم يكن في الواقع (يستعطف) المطعم بن عدي سيد بني نوفل ليدخل في جواره، بقدر ما كان يهدده ويثير مخاوفه،[2] وحماية المطعم بن عدي لرسول الله ﷺ لم تكن مجرد (أريحية) ونبل بقدر ما كانت رعاية لمصلحته وحماية لوضعه، وصمت قريش وهي ترى محمداً ﷺ يدخل في جوار بني نوفل ويحرسونه بالسلاح، لم يكن خوفاً من سلاح نوفل، وإنما خوفاً من سلاح خزاعة وقسي الخزرج"[3] وهكذا استثمر النبي ﷺ أعراف بيئته ومنظومتها الثقافية التواصلية بما لا يتعارض مع مقتضيات الرسالة. كما تجلت هذه

---

(١) ذكر ذلك ابن هشام، ويؤيده ما جاء في البخاري من قول النبي ﷺ في أسارى بدر: "لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له." انظر:

- ابن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص٣٨١.
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدراً، ج٤، ص١٤٧٥، حديث رقم: (٣٧٩٩).

(٢) إذا كنا قد أوردنا هذا القول، فإننا لا نتفق مع صاحبه في أن دخول النبي ﷺ في جوار المطعم بن عدي كان يسعى ﷺ من خلاله تهديد الرجل وإثارة مخاوفه، فليس ذلك من هديه ﷺ، ولايليق بشخصيته الرسالية أن ينسب إليها مثل هذا الوصف، والحق أن ذلك كان منه ﷺ توظيفاً لبنية العلاقات الاجتماعية والمنظومة القيمية القائمة على احترام أعراف الجوار وغيرها، وظاهر حديث البخاري الذي تقدم يشهد بذلك.

(٣) التيجاني، **أصول الفكر السياسي في القرآن المكي**، مرجع سابق، ص١٨٠.

الواقعية المنضبطة في تدبير آليات التفاوض التدافعي بمنطق الموازنات الاستراتيجية، ففي مجريات محاورة سهيل بن عمرو للرسول ﷺ قال: "هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك. ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله. قال الزهري: وذلك لقوله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها."[1]

فقد شمل هذا النص موازنة بين المبدئية المبصرة التي تمثلت في تعظيم حرمات الله، والواقعية المنضبطة التي تمثلت في استيعاب الآخر واحتواء مطالبه التي لا تتعارض مع ثوابت الدين وكلياته الأساسية، مع مواجهته ﷺ لما ترتب عن التفاوض مع الخصوم من حرج سياسي لدى أتباع الرسالة مثل قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يارسول الله ألست نبي الله؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل. قال: بلى. فقلت: علام نعطي الدنية في ديننا. فقال: إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه."[2] يقول الطيب برغوث تعليقاً على هذا الحدث: "والدراسة المتكاملة للموقف، تفضي بنا إلى الأهمية البالغة لمنطق الموازنات الاستراتيجية في كسب الرهانات الصعبة، كما يتجلى ذلك في معركة الحديبية، التي لم تكن معركة عسكرية، بل كانت معركة سياسية دقيقة، كان لفقه الموازنات فيها دور حاسم، منح للدعوة الإسلامية انتصاراً استراتيجياً بالغ

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الصلح، باب: كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان..، ج٢، ص٩٥٩، حديث رقم: (٢٥٥١-٢٥٥٢). كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ج٢، ص٩٧٤، حديث رقم: (٢٥٨١). وكتاب: الجزية، باب: المصالحة على ثلاثة أيام أو وقت معلوم، ج٣، ص١١٦٢، حديث رقم: (٣٠١٣). وقد تقدم زيادة تخريج لهذه الرواية لكن اقتصرت هنا على لفظ البخاري وتخريج الرواية من صحيحه.

(٢) تقدم تخريجه صفحة (٤٥٣) من هذا الكتاب.

الأهمية،لم يستوعب الصحابة أبعاده في حينها، كما لم تستوعب القوى المضادة انعكاساته الخطيرة على مستقبل الصراع بين الإسلام والجاهلية، وعجزت عن الاستيعاب الاستراتيجي للموقف، وانحبست رؤيتها في نطاق بعض المكاسب الشكلية الآنية...

لقد تغاضى رسول الله ﷺ مؤقتاً عن بعض المكاسب... الجزئية التي حققتها وثيقة الصلح لقريش، وتجاوز منطق العواطف والمثالية المبدئية الحدية، إلى منطق الواقعية الحركية المنضبطة، التي تجعله يوازن بين الخيارات السياسية المتاحة،"[1] والشواهد على هذه الواقعية من السيرة النبوية كثيرة، مثل موقفه ﷺ من المنافقين وترفقه بعبد الله بن أبي، وإيثاره ﷺ بعضهم دون سواهم غنائم حنين، وغير ذلك مما تقدم. وقوله عن طائفة من الجيش كانوا معه متجهين نحو مكة لفتحها حين لم يستجيبوا لنداء الإفطار في نهار رمضان: "أولئك العصاة" فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرِبَ فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: "أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ."[2]

إن الحديث عن الكليات السننية في الفقه العمراني النبوي حديث طويل الذيول يحتاج إلى تتبع، وجمع، واستقراء، واستنباط، ومدارسة للروايات والوقائع، وإطالة النظر فيها، مع الاستعانة بمناهج الأصوليين وقواعدهم، وبمناهج الاجتماعيين والإنسانيين وطرائقهم، وهذه الكليات هي بلا شك جزء من ذلك الفقه الذي يدخل إلى القلوب بغير استئذان. وهو ما يحتاج إلى إفراغ الوسع وبذل الجهد للقيام بذلك خدمة للسيرة النبوية، ونهوضاً بالأمة الإسلامية، لاسترجاع ريادتها الحضارية العالمية.

---

(١) برغوث، **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، مرجع سابق، ص٢٣٨-٢٣٩.

(٢) القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الصيام، بَاب: جوَازِ الصوْمِ وَالْفِطْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، ج٢، ص٧٨٥، حديث رقم: (١١١٤).